البلاغة العربية

في دور نشأتها

بحث تحليلي في علم البلاغة، وموضوعاته الأولى، والعوامل التي أنشأته، ومقدمة لنهضة الفن البياني.

بقلم
الدكتور سيد نوفل

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة
١٩٤٨

الإهداء

إلى أصدقاء العلم ومن يجدون في البحث

والدرس متاعا رفيعا يزرى بكل متاع

سيد نوفل

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست موضوعات الكتاب

مقـــدمة

فى سنة ١٩٣٣ ، حين كنت طالبا فى المرحلة النهائية بكلية الآداب ، كنا نوجه نحو قراءة الآثار العربية القديمة ، وبيان محاسنها ومساوئها ، ونقدها نقداً علميا حراً ؛ لا يحده سوى نزاهة البحث ، ودقة الرأى ، واستقصاء الدرس .

ودرست حينئذ : البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وأدب الكتاب للصولى ، وكتاب الكتاب لابن درستويه ، كما درست سواها من الكتب ، أتلمس نشأة البحث البلاغى فى العربية .

وكان أستاذ البلاغة العربية يعلن ثورة جامحة على دراسة البلاغة ، وينقد الأساليب التى انتهت إليها ، ويدلنا على أسباب الجمود الفكرى والإحالة الذوقية ؛ وينشد أساليب طريفة تعتمد على الماضى ، وتساير الحاضر ، وتستطيع أن تحيا فى المستقبل .

وخرجت من الجامعة بعد أن حصلت على الليسانس ، فاشتغلت بالصحافة عامين : أكتب الفصول الطوال فى الأدب ، واللمحات القصيرة فى الاجتماع والسياسة . لكن الهوى ، مع ذلك كله ، ظل يجذبنى نحو الجامعة . فلم ينقطع حبل اتصالى بالدراسة العلمية .

وتركت الصحافة وعدت إلى الجامعة . فوجدت من فسحة الوقت ما جعلنى أفكر فى الحصول على درجة الماجستير فى الآداب ، واخترت

هذا الموضوع الذى بدأت دراسته أيام الطلب : «نشأة البلاغة العربية»

وتركت الجامعة واشتغلت فى مكتب وزير المعارف عامى ١٩٣٨ ، و ١٩٣٩ . ثم تركت عملى بمكتب الوزير إلى إدارة الثقافة العامة ، وحينئذ أتممت ما بدأته منذ أعوام ، وما كان عملى المتصل يحول دون السير فيه بخطوات واسعة . وتقدمت إلى جامعة فؤاد الأول بهذه الرسالة ، فنلت درجة الماجستير فى الآداب فى مطلع عام ١٩٤٠ .

وقد كنت أرغب فى استكمال البحث ، والانتهاء من هذه المقدمة الدراسية إلى غاية ، ولهذا أجلت نشره . لكننى عدت هذه الأيام ، فرأيت أن أنشره فى الناس كما هو .

***

وقد قصدت فى هذا البحث إلى كتابة تاريخ البلاغة العربية فى دور نشأتها ، ووضع المقدمة لمنهاج صحيح ؛ يقوم على درس الاصطلاحات وتطورها ، وكيف نشأت بسيطة ساذجة ، ثم تخطت أدواراً انتهت بها إلى التركيب والتعقيد .

ولما كان الجاحظ هو مؤسس علم البلاغة العربية وجامع مسائلها ، لم يكن مناص من اتخاذه الأساس الأول لهذه الدراسة .

ولما كان أكثر معاصريه استطراداً ، وأبعدهم عن مراعاة النظام فى التأليف ـ فقد كان من العسير على من يبحث موضوعا عنده أن يركن إلى كتاب معين ، وكان لا بد لدارس بلاغته من قراءة جميع كتبه وجمع المتفرق فيها ، والمقابلة بينه وتفسيره ؛ إذ كثيراً ما يبدو متناقضا .

وهذا ما صنعت . قرأت ما بأيدينا من كتبه ، وجمعت النصوص التى ورد فيها ذكر البلاغه أو أى اصطلاح من اصطلاحات علومها ، أو لفظ من ألفاظها ، أو معنى من معانيها ، وحاولت أن أصور هذه الاصطلاحات ، كما تدل عليها تلك النصوص المبعثرة .

ورأيت من اللازم ، لفهم البلاغة عند الجاحظ ولتحقيق ماقصدت اليه ، الحديث عن البلاغة قبله ، وكتابة باب عن نشأة البلاغة ، وخاتمة عن الجاحظ فى تاريخ البلاغة . واقتضى هذا قراءة المتقدمين الذين سبقوه ، وكما اقتضى قراءة معاصريه وبعض المتأخرين ممن عرضوا له ولعصره

وقد تجنبت تحميل النصوص مالاتطيق من المعانى والدلالات ، والاسراف فى الاستنتاج . بل كنت أوثر أن أدع النص -مادام واضحا- يبين عن نفسه ، على أن أتكلف عنا. قول لاغناء فيه ولا جديد

وانى ، وإن أنفقت عدة سنين فى هذا البحث ، لازلت أرى أنه محاولة لابد من أن تعقبها محاولات . وبداية أرجو أن تنتهى إلى غاية ؟

١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٨

سيد نوفل

الكتاب

البابُ الأول

نشأة البـــلاغة

أتى فى شعر الجاهليين كثير من ألوان التشبيه والمجاز . وقد يكون مصدر هذا الطبيعة الشعرية الخيالية التى تقابل بين الأشياء، وتشابه، ثم تبين عنها فى صورة جميلة بارعة . لكن من يلتمس بذور البحث البلاغى يجد لها بعض المظاهر فى مناظرات الشعراء، وأحاديثهم ، وفيما كان يتخلل أسواق العرب وأنديتهم من حوار أدبى

فامرؤ القيس يناظر علقمة الفحل، وتفضل زوجة امرىء القيس علقمة لحسن تصويره فى قوله :

فأدركهن ثانياً من عِنانه يَمُرُّ كغيثٍ رائحٍ متحلِّبِ

وترى أن هذا خير من قول زوجها :

فللسوط ألهوبٌ وللساق دِرَّةٌ وللزجر منه وَقْعُ أهوجَ مِتْعَبِ

وطرفة ينكر التجوز فى قول المُسَيَّب بن عَلَس :

وقد أتلافى الهم عند احتضاره بناجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَمِ

ويقول : استنوق الجمل ؛ لأن الصيعرية من سمات النوق ، فاستعمالها مع الجمال إحالة غير مقبولة .

وروى أن النابغة كانت تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ ، فيأتيه الشعراء ويشدون أمامه الشعر ليحكم بينهم . ويظهر أنهم كانوا يتفاخرون

بما فى شعرهم من تشبيه ومجاز. فالخنساء تنشده قولها :

وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به   كأنه عَلَمٌ فى رأسه نار

ويعجب النابغة به ، فيغيظ هذا الإعجاب حسانا ، فيثور ويتحدى النابغة وأباه والخنساء أن يأتوا بمثل قوله :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعن فى الضحى

وأسيافُنا يقطرنَ من نجدةٍ دما

لكن النابغة لا يعجبه هذا التصوير ، فيقول له : أقللت جفانك وأسيافك — يعنى أن الجفنات لأدنى العدد والكثير جفان ، وكذلك أسياف لأدنى العدد والكثير سيوف ؛ وقلت : « يلمعن بالضحى » ولو قلت « يبرقن بالدجى » لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف فى الليل أكثر ؛ وقلت « يقطرون من نجدة دما » فدللت على قلة القتل ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم . ثم يتيه النابغة عليه بحسن بيانه فى قوله :

خطاطيفُ حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ   تُمَدُّ بها أيدٍ إليكَ نوازع

ويعنينا فى هذه الرواية أن الخلاف قام على مسألة تتصل بالتشبيه والمجاز

ويقول ابن رشيق فى أول حديثه عن المبالغة : (والناس فيها مختلفون منهم من يؤثرها ويقول بتفضيلها ، ويراها الغاية القصوى فى الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بنى ذبيان ؛ وهو القائل : أشعر الناس من استُجيد

كذبه وضحك من رديئه . هكذا أعرفه . ورأيت بخط جماعة منهم عبدالكريم والباغانى : من استجيد جيده ومطابقه وضحك من رديئه . . وروى قوم من حديث النابغة ، ومطالبته حسان بن ثابت بالمبالغة ، ونسبته إياه إلى التقصير فى قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ما هو مشهور عندهم مشهور فى كتبهم)[1]

وقد يقال إن هذه الروايات ضعيفة — على ماقرر ابن رشيق من شهرة حديث النابغة — لكنها تلائم طبيعة الحياة الفنية ، فيمكن الاطمئنان إلى وقوعها .

***

وهناك شىء آخر فى الجاهلية يتصل بهذا الموضوع . ذلك هو تجويد الشعر وتنقيحه ، وما قد يدل عليه من المعرفة بمقاييس بلاغية يطبقها الشاعر على قوله ويخضعه لها . فقد عرف زهير بن أبى سُلْمَى بتهذيب الشعر وتسميته قصائده الكبار بالحوليات . يؤلف كلا منها فى شهر ، ثم يتوفر عليها عاما يزيد فيها وينقص ويضع لفظاً موضع آخر . وقد ذكره الجاحظ

---

(١) العمدة ، ج ٢ ص ٤٣

فى معرض القول عمن يتحرون المطابقة بين الكلام ومقتضاه ، وأورد له هذين البيتين فى عيب الخطل وهو إلقاء القول على عواهنه :

وذى خَطَلٍ فى القول يحسب أنه مصيب ٌفما يُلمِمْ به فهو قائله

عبأت له حلما وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو بادٍ مقاتله

وسار على قاعدته جماعة من بعده ، كالحطيئة الذى يقول : خير الشعر الحولىّ المنقح ، والبُعَيْث الشاعر الخطيب القائل : « إنى والله ما أرسل الكلام قضيبا خشيباً ، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكّك » .

ويظهر أن الحطيئة قد أسرف فى التنقيح . ولهذا عابه الأصمعى بقوله: «الحطيئة عبد لشعره» ؛ فعابه حين وجد شعره كله متخيراً منتخبا مستويا لمكان الصنعة والتكلف فيه (١) . وقد تحدث الجاحظ عن المجودين الجاهليين ، فذكر أنهم كانوا يصنعون ذلك اتهاما للعقل ، وتتبعا على النفس ، ووضعا للعقل حاكما فى الرأى وللرأى عيارا على الشعر ، وإشفاقا على الأدب (٢) .

وتحدث صاحب الصناعتين عن النابغة ، وكيف كان شعره ضعيفاً متكلفا ، ثم برىء بفضل إفادته من يثرب وعلمها ، ونقل عنه قوله :

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ١٤٩ — ١٠٥

(٢) البيان ، جـ ٢ ص ٢١

« دخلت فى يثرب فوجدت فى شعرى ضعفا ، فخرجت منها وأنا أشعر العرب (١) » .

ولعل قول عنترة :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّم أم هل عرفتَ الدارَ بعد تَوَهُّمِ

وقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا

لعلهما يدلان على أن العرب قد عرفوا الفن البيانى القائم على وضع المعنى الواحد فى طرق مختلفة للدلالة عليه ، وأنهم قد قصدوا إلى التفنن فى الصياغة اللفظية .

ويتصل بهذا ما عرف عن الجاهلية من كثرة الخطباء ، فقد عد الجاحظ كثيراً من الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء ، وأصحاب الحكمة والدهاء ، ومن كانو يخطبون على العرب عامة (٢) .

وروى عن خطباء الجاهلية وأبينائها شدة اعتزازهم بالبيان ، وتفضيله على كل ما عداه من مقومات الإنسان . وفى هذا قال ابن ضمرة : « إنما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه ؛ إن صال صال بجنان ، و إن قال قال ببيان » (٣)

وقد استدل الجاحظ على أن الجاهليين عرفوا عيوب البلاغة والخطابة

---

(١) الصناعتين ، ص ٤٨٤

(٢) البيان ، جـ ١ ص ٢٢٦ و ٢٣٣

(٣) البيان ، جـ ١ ص ١٢٨

استدلالا لغويا فقال : « وكلامَ النّاس فى طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسمج ، والخفيف والثقيل . وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا . فإن زعم زاعم أنه لم يكن فى كلامهم تفاضل ، ولا بينهم فى ذلك تفاوت ، فلم ذكروا العَيِىّ والبكىّ ، والحَصِر والمفْحَم ، والخطل والمسهب ، والمتشدق والمتفيهق ، والمهماز والثرثار ، والمكثار والهماز ؟! ولم ذكروا الهُجْر والهَذَر ، والهَذَيان والتخليط . وقالوا رجل تلقاعة وتلهاعة وفلان يتلهيع فى خطبه ، وقالوا : يخطىء فى جوابه ، ويحيل فى كلامه ، ويناقض فى خبره . ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون فى بعضهم دون بعض ، لما سمى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء »[1].

وفى هذا آية على معرفتهم بالإيجاز والتعقيد ، والمطابقه بين الكلام وموضوعه .

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ١٢٨

وأتى الإسلام فكان عاملا قويا فى تطور اللغة ، واتخاذ المجاز وسيلة من وسائل هذا التطور . ذلك بأنه وسع الفكر العربى ومد فى آفاقه . والفكر هو الرابطة بين الألفاظ والمعانى ، واتساعه هو الوسيلة إلى التوسع اللغوى و إدخال الجديد من الألفاظ وابتداع الطريف من الأساليب . لهذا بدلت ألفاظ كأسماء الأيام والشهور ، وتجوز فى استعمال أخرى بنقلها من معان إلى غيرها مناسبة لها كالمؤمن والمسلم والكافر والمنافق ؛ فالعرب إنما عرفت المؤمن من مجرد الإيمان والتصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا بها يسمى المؤمن بالإطلاق مؤمنا . والمسلم إنما عرفت منه إسلام الشىء ، ثم جاء الشرع فنقل معناه . أما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروا ، وكان الأصل من نافقاء اليربوع . ولم يعرفوا فى الفسق إلا قولهم فسقت الرطبة إذا خرجت ، وجاء الشرع ففسر الفسق بالإفحاش فى الخروج عن طاعة الله [1] .

ولم يكن فى الجاهلية قولهم صرورة لمن لم يحج ، ومخضرم لمن أدرك الجاهلية والإسلام ، وتسميتهم كتاب الله قرآنا ، والمسح بالتراب تيمما [2]

---

(١) المزهر ، ج ١ ص ١٠٨ و ١٤١
(٢) الحيوان ، ج ٥ ص ٨٦

وكان للرسول طريقة فى البلاغة كما سيأتى ، وعرف فى أحاديثه كثير من الأمثال السائرة والعبارات المبتكرة والمجازات البليغة ، بل لقد اتخذ الإقناع البلاغى سبيلا لنشر الدعوة ، وأذعنت بعض قبائل العرب له . وآية هذا قصة وفد تميم ، فقد قدموا على الرسول بخطيب وشاعر تكلما بما عندهما ، ثم أجابهما خطيب من لدن النبى وشاعر ، فلما فاق هذان الأولين أعلن الوفد إسلامه ، وقالوا إن هذا الرجل لَمُؤَتَّى له ، و إن خطيبه أبلغ من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا . ولعل هذا كان مدعاة إلى أن يفكر المتناظرون فى طريقة المقابلة بين الأساليب، والنظر فى ألوان البيان ومميزات الحسن والقبح فى الأداء .

وشجع الشعراء والخطباء فقرب حسانا ، وأهداه جارية وضيعة، وخلع عليه برده . وقال له لما هيج الغطاريف على بنى عبد مناف : «والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام فى غبش الظلام » . وقال للنابغة الجعدى : « لا يفضض الله فاك ! » . وقال لكعب بن مالك : « ما نسى الله لك مقالك» . وقال لهيذان بن شيخ : « رب خطيب من عبس ! » . كما روى عنه قوله : « إن امرأ القيس بيده لواء الشعر [1] »

وكان القرآن معجزة الرسول حجة بلاغية ، تحدى العرب بل الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ولعل الموازنة بين أسلوبه

---

(١) العمدة . ج ١ ص ٦٣

وأسلوب غيره قد استدعت التنبه إلى المميزات اللفظية والمعنوية ، والتأمل فى طرائق البيان .

وقد أكثر القرآن من ضرب المثل وألوان التشبيه والمجاز والكناية والبديع ، حتى كاد المتقدمون والمتأخرون يجدون لكل نوع بلاغى يهتدون إليه مثالا فيه .

وكان تفهمه مدعاة إلى ظهور البحث البلاغى ، فألفت فى العصور الأولى كتب كثيرة فى معانى القرآن ومجازه ونظمه وإعجازه . فواصل ابن عطاء والكسائى والأخفش والرؤاسى ويونس بن حبيب والمبرد وقطرب النحوى والفراء وأبو عبيدة وابن الأنبارى والزجاج وخلف ـ كل هؤلاء ألفوا فى معانى القرآن [١] . وأبو عبيدة ألف فى مجاز القرآن ، وللجاحظ كتاب نظم القرآن ، وكتاب المسائل فى القرآن ، ولبشر بن المعتمر كتاب فى متشابه القرآن ، ولمحمد بن يزيد الواسطى كتاب إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه ، ولابن الأخشيد كتاب نظم القرآن ، ولابن الراوندى كتاب فى الطعن على نظم القرآن [٢] .

وسيأتى ذكر كتابى أبى عبيدة ، وكيف أنه ألف كتاب المجاز من أجل مسألة بلاغية فى القرآن ؛ وهى تشبيه المعلوم بالمجهول فى قوله تعالى :

---

(١) الفهرست ، ص ١ وص ٥١

(٢) الفهرست ، ص ٥ وص ٥٧

(طلعها كأنه رؤوس الشياطين) . وكانت آيات القرآن موضوع درس الجاحظ فى كتابه عن الايجاز والاستعارة الموصوف بقوله : « ولى كتاب جمعت فيه آيا من القرآن ، لتعرف بها مابين الإيجاز والحذف و بين الزوائد وَالفضول والاستعارات . »

وكان المجاز فى القرآن مدعاة للجدل الطويل بين المثبتين والنافين ، حتى ألف مؤرج السدوسى كتاب الرد على من نفى المجاز من القرآن (١) . وقد عرض الجاحظ لهذا الجدل فى مواضع عدة من كتبه ، كالذى ذكره من من زعم ابن حائك ، وناس من جهال الصوفية ممن ينكرون المجاز فى القرآن و يفسرون بظاهر اللفظ ـ أن النحل أنبياء ، لقوله عز وجل : (وأوحى ربك إلى النحل) ، وأن الحواريين أنبياء لقوله تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين) . ثم يسخر منهم فيقول : « بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله عز وجل على المخرج العام : (وأوحى ربك إلى النحل) ولم يخص الملوك والأمهات واليعاسب ، بل أطلق القول إطلاقا . وعزا الجاحظ هذا إلى عدم العلم « بوجوه اللغة وفقه بعضها من بعض » . وعرض لقوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب) فقال : « فالعسل ليس بشراب ، وإنما يحول بالماء شرابا أو بالماء نبيذا » ، ثم قال : « وهذا الباب هو مفخر العرب فى لغتهم ، و به قال و بأسبابه اتسعت) .

---

(١) الفهرست ، ص ٥٢

وهكذا نرى القرآن قد أثار البحث فى المجاز العربى وفهم أسراره ، وأنهم كانوا يرونه مفخرة للعرب لا يشاركهم فيها أحد سواهم[١].

وظلت البلاغة متصلة بالقرآن على هذا النحو ، حتى إذا كان القرن الرابع رأينا أبا هلال العسكرى يقرر أن علم البلاغة هو الوسيلة لمعرفة إعجاز القرآن ، ويقول : « ... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة .. لم يقع علمه بإعجاز القرآن ؛ من جهة ماخصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ... »[٢]

---

(١) الحيوان ، ج ٥ ص ١٢٨ – ١٢٩

(٢) الصناعتين ، ط مصر الثانية ، ص ٢

وكان فى الإسلام مجالس أدبية تشبه المجالس الجاهلية ، كما استحدثت منها أنواع تلائم الحياة المتحضرة الجديدة .

ومن المجالس الطريفة مجالس النساء ، كمجلس عائشة بنت طلحة ، ومجلس سكينة بنت الحسين . فيروى أن عائشة كانت تفد على هشام ، فيأتى مشايخ بنى أمية إلى داره ويسمرون عنده ، فلا يتذاكرون شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، ولا يطلع نجم ولا يغور إلا سمته .

وكانت سكينة برزة تجالس جلة قريش ، ويجتمع إليها الشعراء والمغنون . وقد عرفت بذوقها الفنى والأدبى ونقد الشعر والغناء ، وكان رواة الشعر يتحاكمون إليها ، وكانت تجيز الشعراء على ماتراه حسنا من قولهم

وكيفما كان الأمر فهذه المجالس ، كما تصورها الروايات ، كان يدور فيها شيء من النقد اللفظى والمعنوى للشعر . والنقد وثيق الصلة بالبلاغة .

وكانت مجالس الخلفاء والولاة كعبة ، يحج إليها الشعراء والعلماء فيعرضون أشعارهم ، ويتناظرون فى آرائهم ومعارفهم . وكانت هذه المجالس موضعاً لإثارة كثير من المسائل الأدبية والفنية ، وللنظر فى ألوان الأدب وما فيها من جمال التصوير .

ومن مواطن الأدب مربد البصرة ومسجد الكوفة . فكان جرير

والفرزدق يذهبان إلى المربد للتهاجى . وكان للراعى والفرزدق وأتباعهما حلقة بأعلى المربد يجلسون فيها ، ويعرضون على الناس إنتاجهم الغزير .

وكانت مساجد الكوفة والبصرة ميدانا لنشاط المحدثين واللغويين والنحاة والنقاد والمتكلمين والقصاص ؛ يتذاكرون فيها ويتجادلون ، ويدلى كل بما عنده لأصحابه ، فيتولون كلامه بالنقد والتجريح . ولهذا كان الخطباء والمحدثون يتحرون سلامة التعبير ، وحسن الأداء ، والبعد عن عيوب البيان .

ومما روى من هذه المناظرات ماكان بين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فى مجلس الحسن البصرى ، من مناظرة حول مرتكب الكبيرة : أكافر هو ، أم فاسق . وقد استطاع واصل أن يقنع عمراً ، ويجعله يأخذ برأيه فى أنه منزلة بين المنزلتين : الكفر والفسق . وقد تحدث الجاحظ عن واصل ، وبلاغته وفصاحته وكمال بيانه ، حديثاً يشرح كيف كان هؤلاء المتناظرون يلتمسون الكمال فى البيان ، ويتحرون الدقة فى الأداء (١) ؛ كما تحدث عن بلاغة ثمامة ابن أشرس الخطيب ، فقال : « وماعلمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ، ما كان بلغه . وكان لفظه فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك . قال

---

(١) البيان ، ج ١ ص ٣٠

بعض الكتاب : معانى تمامة الظاهرة ، فى ألفاظه الواضحة ، فى مخارج كلامه »[١] كما وصف الخزيمى شعر نفسه فى مديح أبى دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة إزاء القلوب كركب وقوف

والحق إن العناية بالخطابة قد أتى عليها وقت بلغت فيه مبلغاً لا يكاد يتصور ، حتى عرف من الخطباء جماعه مبالغون فى الإكثار، كربيعة الرأى ، والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وعلى بن هشام وغيرهم كثير . وقد عقد لهم الجاحظ فصلا طويلا بعنوان : « باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأبيناء والفقهاء ، ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل »[٢]

وقد دفع التماس البيان الحسن والتجويد الخطابى إلى النظر فيما يثقل اللسان من تنافر الحروف والكلمات، وفيما يعوق سرعة الإفهام من الإغراب، وفى اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما . و إن ما أورده الجاحظ عن اللكنة وما إليها من عيوب اللسان ، وعن الخطباء الموصوفين بها ، وعن المغربين والمتكلفين لأوضح برهان على مبلغ عناية القوم بالتجويد البيانى ، وكيف أدت هذه العناية إلى الالتفات نحو المسائل البلاغية .

ويكفى أن ينظر الإنسان نظرة عامة فى كتاب البيان والتبيين، ليرى أنه ثمرة العناية بالخطابة ، وأن موضوعها هو أصل الكتاب وقوامه . يبدؤه بالحديث عن الخطباء البارعين أمثال واصل بن عطاء ، و يتحدث حديثا

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ١٠٥
(٢) البيان ، جـ ١ ص ٨٢

طويلا عن مخارج الحروف والتنافر وسمات الخطيب وهيئته ، ويورد النقاش بين صاحب البلاغة والخطابة وبين من يؤثر الصمت ، ويحتج للخطابة وجوازها ، ويذكر طبقات الخطباء فى الجاهلية والإسلام ، ثم يدافع عن خطباء العرب ، ويمهد لرد مآخذ الشيوعية عليهم بإيراد نماذج من خطب النبى والخلفاء الراشدين وملوك بنى أمية وبنى العباس وولاتهم ، ثم يفصل القول فى تفنيد مزاعم الشيوعيين وغلاة الأعاجم . أما ما يتصل بهذا من مسائل أخرى فهو استطراد ، على مذهب الجاحظ القائل بأنه لابد لمن استكده الكد من الاسترواح إلى بعض الهزل ، وبأن الفكاهات والمقطوعات الشعرية لازمة حتى فى كتاب الحيوان .

ومما كان له أثر فى نشأة البلاغة وتاريخها ظهور طبقات الكتاب، والمعلمين، والمتكلمين، والفقهاء، واللغويين، والرواة.

* * *

وكان اتخاذ الكتاب أمراً دعت إليه حاجة الدعوة الإسلامية، فاتخذ الرسول أكثر من عشرة كتاب يدونون الوحى، ويكتبون الكتب إلى الملوك والولاة بالدعوة إلى الإسلام.

ولما تولى أبو بكر، انتقضت عليه جزيرة العرب بين مرتد ومانع للزكاة. فواجه حروبا كثيرة، عقد فيها أول ولايته أحد عشر لواء، على كل منها قائد يسير إلى ناحية معينة، ولا يسير إلى غيرها بعد الفراغ منها إلا بأمر من أبى بكر. وتبعت هذه الألوية ألوية أخرى. ولهذا كثرت كتب أبى بكر إلى هؤلاء القواد، تجيب عن أسئلتهم، و توجههم فى حروبهم وسيرتهم. واتخذ عمر وعثمان وعلى كتابا، ثم سار على هذا النهج ملوك بنى أمية والعباس و ولاتهم، بل إن الكاتب كان يتخذ له أحيانا كاتبا.

ونعنى بالكتاب هنا كتاب الرسائل. وكانت كثرتهم من العرب فى عهد الخلفاء الراشدين و بنى أمية. فلما أتى العباسيون كثر العنصر الأجنبى، وأخذ العرب يختفون من هذا الميدان لما كان ينزل بالكتاب من مهانة ومذلة. ولكن الأجانب كانوا يزاحمون العرب فى علمهم بالعربية وحسن إلمامهم بآدابها. فشمعل، كاتب عبدالملك بن مروان، كان يقول

الشعر [١] . ويحيى بن يعمر الأهوازى ، كاتب يزيد بن المهلب ، كان فصيحا يلحّن عنبسة بن سعيد والحجاج الثقفى [٢] .

وهكذا تولى الكتابة جماعة عرب الأصل، أوأعاجم تثقفوا العربية وفقهوها و برعوا فى آدابها ؛ فكانوا عرب النشأة والتعلم . بل إن هؤلاء الأعاجم قد ذابوا فى العرب ذوبانا بلغ ببعض نصاراهم أن يصوموا رمضان مجاملة للمسلمين كأبى إسحاق الصابىء ، وذاع فى النصارى والمجوس منهم حفظ القرآن والتفقه فى الدين ، وكان كبارهم كخالد بن برمك يقربون الشعراء والأدباء ويحسنون جزاءهم .

وكتاب عبد الحميد الكاتب إلى زملائه يدل على نوع الثقافة التى أخذوا أنفسهم بها ، وكيف كانت عربية مستمدة من القرآن والدين فهو يدعو الكتاب ـ كما سيأتى فى الباب الثانى ـ إلى ثقافة عربية إسلامية ، قوامها القرآن والفقه الإسلامى وحفظ الأساليب العربية ؛ كما يطلب إليهم معرفة أيام العرب والعجم ، حتى تكون لهم عظة وتجارب تاريخية . وقد سئل عبد الحميد : ما الذى مكنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصلع ، يعنى أمير المؤمنين [٣] .

وكان الكتاب يجودون فى صناعتهم ، وكان الخلفاء والملوك والولاة

---

(١) الكتاب والوزراء للجهشيارى ، ط الحلبى ص ٤٠
(٢) الكتاب والوزراء ، ص ٤١ ـ ٤٢
(٣) الكتاب والوزراء ، ص ٨٢

يتعهدونهم و يراجعونهم فيما يكتبون أحيانا . فيروى أن عمر بن الخطاب استكتب زيادا كتابا فنظر فيه ثم قال له : أعد ، فكتب غيره ، فقال له : أعد ، فكتب الثالث ، فقال عمر : لقد بلغ ما أردت فى الأول، ولكنى ظننت أنه قد روّى فيه ، ثم بلغ فى الثانى ما أردت فكرهت أن أعلمه ذاك ، وأردت أن أضع منه ، لئلا يدخله العجب فيهلك[١] .

وأمر يحيى بن خالد بن برمك اثنين من كتابه أن يكتبا كتابا فى معنى واحد ، فأطال أحدهما وأوجز الثانى . فقال للموجز ، وقد نظر فى كتابه : ما أرى موضع مزيد ، وقال للمطيل : ما أرى موضع نقصان[٢] .

وكيفما كان الأمر فقد اقتضى انقطاع هذه الطائفة إلى الكتابة وتوفرهم عليها التفنن فيها ، والابتكار فى أساليبها ، والنظر فى صور البيان

وقد امتدح الجاحظ طريقتهم فى الكتابة ، فقال ، بعد أن أورد صحيفة بشر بن المعتمر التى ستأتى : «اما أنا فلم أر قوماً قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشياً ، ولا ساقطاً سوقيا »[٣] . وفضل الكتاب فى باب البيان على الرواة واللغويين ، وقال إنه لم يعثر بعلم الشعر إلا عند أدباء الكتاب ؛

---

(١) الكتاب والوزراء ، ص ١٨

(٢) الصناعتين ، ص ١٨٢

(٣) البيان ، ج ١ ص ١٢٨

كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . وعلق ابن رشيق على هذا بقوله : « والكتاب أرق الناس فى الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيفاً ، وأحلاهم لفظاً ، وألطفهم معانى ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف ... وقد قيل الكتاب دهاقين الكلام » . ثم بين أن هؤلاء القوم لا يتخذون الشعر تجارة ومرتزقا وأن لهم مذهباً فى البلاغة يقوم على اختيار السهل من الألفاظ والبعيد عن التكلف والإغراب (١) .

ويكفى أن يكون من بينهم عبد الحميد بن يحيى وابن المقفع — وسيأتى الحديث عنهما — لإدراك أثرهم فى تاريخ البلاغة .

وقد ألفت كتب فى أدب الكتابة . فألف ابن قتيبة أدب الكاتب ، وألف الصولى أدب الكتاب ، وألف ابن دروستويه كتاب الكتاب . وهذه الكتب ، وإن كانت فى جملتها لغوية تهذيبية ، فيها من البلاغة قدر مذكور . ويعنينا من هذه الكتب كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة ، لأنه مؤلف فى الحقبة التى نؤرخ لها .

وقد عرض ابن قتيبة فى هذا الكتاب لبعض المسائل البلاغية ، فتحدث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ودعا إلى التفريق بين خطاب الأكفاء والمساوين وخطاب الرؤساء والأساتذة ، وضرب له الأمثلة (٢)

---

(١) العمدة ، ج ٢ ص ٩٤ — ٩٥

(٢) ص ١٥ — ١٦

وذكر الإغراب وتعقيد الكلام ، وقال إن من الشائن للكاتب ترك السهل من الألفاظ والمستعمل من المعانى [1] .

وورد التشبيه فى قوله : « والربابة فأرة صماء . . . ويشبهون بها الرجل الجاهل [2] . وقال : « وشولتها — العقرب — ما تشول من ذنبها، وبذلك سميت النجوم تشبيها بها » [3] .

وفى باب : « تأويل كلام من كلام الناس مستعمل » [4] تحدث عن الأمثال المشهورة، والاستعمالات المجازية اللغوية ، وعرض للاستعارة فى قوله: « ويقولون ما بفلان طرق أى ما به قوة . وأصل الطرق الشحم فاستعير لمكان القوة لأن القوة أكثر ما تكون عنده [5] » ؛ وفى تعليقه على قول بعضهم مابه قلبة أى مابه حول بقوله : «هذا هو الأصل، ثم استعير لكل سالم ليست به آفة [6] .

وتحدث عن الإيجاز حديثاً أدنى إلى الدقة الاصطلاحية ، فقال تعليقاً

---

(١) ص ١٣ و ١٤

(٢) ص ١٥٣

(٣) ص ١٥٥

(٤) ص ٤٤ — ٥٥

(٥) ص ٤٤

(٦) ص ٥٥

على قول أبرويز « واجمع الكثير مما تريد فى القليل مما تقول » : (يريد الإيجاز. وهذا ليس بمحمود فى كل موضع ولا بمختار فى كل كتاب ، بل لكل مقام مقال . ولو كان الإيجاز محموداً فى كل الأحوال لجرده الله تعالى فى القرآن . ولم يفعل الله ذلك ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للإيجاز وكرر تارة للإفهام . وعلل هذا مستوفاة فى كتابنا المؤلف فى تأويل مشكل القرآن [1] . . .)

وهذا الكلام ، وما تلاه من الأمثلة ، يدل على فهم للإيجاز ومعرفة بسره

ومن الكتب التى ألفت للكتاب غير ما سبق « معالم الكتابة ومغانم الإصابة» لابن شيت القرشى ، و «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» للشهاب الحلبي الكاتب ، و « المثل السائر » لابن الأثير ، و « صبح الأعشى » للقلقشندى . وهذه كلها ذات أثر فى تاريخ البلاغة ، لكنها متأخرة عن عصر نشأتها فلا نعرض لها .

فالكتاب إذاً كانوا يتأملون فى الأساليب ، ويجودون ، ويتحدث كبارهم فى بعض مسائل البلاغة والبيان ، كما جعلت صناعتهم بعض العلماء يؤلف لهم كتباً تناولت بعض مسائل البلاغة .

---

(١) ص ١٧

أما المعلمون فلم ترد عنهم إلا إشارات مقتضبة تدل على عظم مافاتنا من تعاليمهم . فإبراهيم بن جبلة الخطيب كان يعلم الفتيان الخطابة [١] ، وشبَب بن شيبة كان يعلم فتيان بنى منقر [٢] .

ومما يدل على كبير مكانتهم أن عمر الخطاب عنى بأمرهم، وأرسل إلى عماله على الأقاليم ليوجهوا عناية المعلمين إلى ألوان خاصة من التربية والتعليم [٣] .

وقد دافع الجاحظ عنهم، بعد أن أورد طرفاً من المثالب التى يرمون بها ، ثم قسم المقدمين منهم قسمين : معلمى أولاد الخاصة ، ومعلمى أولاد الملوك . وعد فيهم الكسائى، وقطرب، والضحاك ، وعامر الشعبى ، وكذلك الحجاج بن يوسف الثقفى ، ومن جمع بين الكتابة والتعليم كعبد الحميد الكاتب وابن المقفع ، ثم قال : « وما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ولا أحسن بياناً من أبى الوزير وأبى عدنان المعلمين ، وحالها من أول ما أذكر من أيام الصبا . » . وهذه العبارة تدل على مبلغ تأثر الجاحظ

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ١٠٤

(٢) البيان ، جـ ١ ص ٨٠

(٣) البيان ، جـ ٢ ص ٣٨ .

باثنين من معلميه فى أيام نشأته ، لم ينس ذكرهما حتى آخر أيام حياته(١) .

وصحيفة بشر بن المعتمر البلاغية ، التى دفع بها إلى الفتيان الذين يعلمهم إبراهيم بن جبلة الخطابة ، وقال لهم بعد أن استمع إلى قوله : «اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً » — هذه الصحيفة تدل على أن مسائل البلاغة كانت من الأمور التى عنوا بها ، وحاولوا تعليم قواعدها للناشئة ..

(١) البيان والتبيين ، جـ ١ ص ٢١٠ - ٢١١

وكان للمتكلمين أكبر الأثر فى تاريخ البلاغة العربية . فقد عنوا بالجدل الطويل حول تافه المسائل وعظيمها ، واتخذوا من الألفاظ وفهم دلالتها وعرضها على ألوان شتى وسيلتهم إلى الغلب فى هذا الميدان .

والجاحظ المتكلم أوضح برهان على ما أمعن فيه أولئك القوم من الجدل — ويكفى أن تنظر فى أى من كتبه لترى أثره واضحا فيه. فكتاب البيان والتبيين يدور حول البلاغة والخطابة ، والاحتجاج لرأى صاحبها على رأى صاحب الصمت والسكوت ، وإيراد حجج كل منهما مع ميل إلى نصرة الأول . وكتاب الحيوان يتألف من مناظرات شتى بين صاحب الكلب وصاحب القط ، أو بين صاحب الديك وصاحب الكلب ، أو بين صاحب الحمام وصاحب الديك ، أو بين صاحب الديك وصاحب الغربان ، أو بين غيرهما من كل محتج لحيوان مفضل له على ماعداه ؛ حتى النمل تجدلها صاحبا يؤثرها على غيرها ، ويطنب فى ذكر مزاياها وفضائلها . وكتاب المحاسن والأضداد ، إن صحت نسبته إلى الجاحظ ، أبرز كتبه دلالة على جدله . فهو يعرض محاسن الشىء ومساوئه ، وإن كان يعرض أحيانا محاسن الشىء ومساوى ضده . لكن فيه قصدا صريحا إلى الإعانة على الجدل وتعليمه للناس . وهذه خطوة أبعد من سواها . بل إن روح الجدل لا تخفى كذلك فى رسائله الأدبية ، حتى فى (رسالة التربيع والتدوير) التى يسخر فيها من

أحمد بن عبدالوهاب ، تراه يداعبه برفعه وخفضه ، وإن كان الرفع والخفض في السخرية سواء ؛ كما تظهر واضحة في كتابه البخلاء ، إذ يحتج للبخل وعليه بل إن أحد الناس يطلب إليه الاحتجاج على الخمر بعد أن احتج لها من قبل، فيجيبه إلى طلبه ولا يرى بأساً في إعلان هذا وتدوينه .

وكانت فتنة الجاحظ بالكلام وطريقة المتكلمين جامحة، حتى تمنى أن يكون الأطباء متكلمين ، فقال : « وما أحوجنا واحوج جميع المرضى أن يكون الأطباء متكلمين ، وإلى أن يكون المتكلمون علماء ؛ فإن الطب لو كان من نتائج حُذّاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد في الأصول التي يبنون عليها من الخلل ما نجد » (١)

ومن طبيعة الجدل وصناعة الكلام العناية بدلالة الألفاظ أو التوجه نحو فن البلاغة . وجد هذا في تاريخ البلاغة اليونانية وفي تاريخ البلاغه العربيه على سواء . فالسوفسطائيون أثروا في تاريخ البلاغة اليونانية ، والمتكلمون لا ريب كان لهم أكبر الأثر في تاريخ البلاغة العربية . وكان أول كتاب معروف في تاريخ البلاغة ، جمع كثيراً من المسائل البلاغية وبحثها، من عمل الجاحظ المتكلم ؛ كما كان للمتكلمين طريقة خاصة في معالجة البلاغة .

وكان عمدة هؤلاء القوم في جدلهم القرآن والسنة ، يستدلون بنصوصهما ويوجهونها نحو المعنى الذي يقصدون. ويبدو هذا واضحاً في كتاب الحيوان

(١) الحيوان ، جـ ٥ ص ٢٢

حين يحتج صاحب كل حيوان له بما جاء عنه فى القرآن ، كما عنوا بالنظر فى هذه النصوص يدافعون عنها حيناً ويهاجمونها حيناً آخر ، ويثبتون المجاز فيها تارة وينفونه عنها تارة أخرى ، واقتضاهم طرق معانى جديدة ابتداع ألفاظ جديدة . ومن هنا كانت صلة هؤلاء القوم بالبحوث اللغوية والبلاغية وثيقة . كان كبارهم خطباء بلغاء تخيروا الألفاظ للمعانى ، واتسعوا فى الاشتقاق اللغوى ، و « اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم ، فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع[1] » ، ولم يكن بد من أن يقتدى الناس بهم وأن تسير الألفاظ التى اتخذوها ، ما دامت الأسماء القديمة عاجزة عن وسع المعانى الجديدة[2] .

ولهذا كان الناس يفزعون إلى المتكلمين ، يطلبون عندهم فهم القرآن وكشف الملتبس عليهم . ومن هذا ما روى من قصة أبى الهذيل العلاف المتكلم المعتزلى مع الرجل الذى فزع إليه بعد أن عجز جميع الناس عن كشف ما غمض عليه فى القرآن .

وقد قرر الجاحظ أن المتكلمين أقدر على الدفاع عن الدين وفهم القرآن من اللغويين ، فقال فى معرض الحديث عن تفسير آية من القرآن : « ولو كان أعلم الناس باللغة لم ينفعك فى باب الدين حتى يكون عالماً

---

(١) البيان ، ج ١ ص ١٠٦

(٢) البيان ، ج ١ ص ١٠٨

بالكلام[1] » . وأورد كذلك بعض أمثلة لنظر المتكلمين فى آيات القرآن تدل على اتصال هذا النظر بمسائل البلاغة .

فتراه يعرض الجدل فى تشبيه من تشبيهات القرآن على أنه مسألة كلامية يمهد لها بقوله : « وسنذكر مسألة كلامية ، وإنما نذكرها لكثرة من يعترض فى هذا ممن ليس له علم بالكلام » . والمسألة هنا هى اعتراض المعترضين على ضرب المثل فى قوله تعالى (واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ الذى آتيناه آياتنا فانْسَلَخَ منها فأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِين. ولو شِئْنَا لرَفَعْنَاهُ بها ولٰكِنَّهُ أخْلَدَ إلى الأرض واتَّبَعَ هَوَاه ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) . فهم يزعمون أن هذا المثل لا يجوز ضربه لمن آتاه الله الآيات فأعرض عنها واتبع الشيطان ، إذ ما يصح أن يشبه حال من أُعطى شيئاً فرفضه ولم يزد ، بالكلب الذى إن حملت عليه نَبَح وولى ذاهباً ، وإن تركته شد عليك ونبح . كما يزعمون أن اللهث لم يقع موضعه لأنه ينشأ عن شدة العطش أو الحر أو التعب . فرد عليهم الجاحظ رد المتكلم قال : « ليس بعيدا أن يشبه الذى أوتى الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات ، فى بدء حرصه عليها وطلبه لها ، بالكلب فى حرصه وطلبه ؛ فإن الكلب يعطى الجد والجهد من نفسه فى كل حالة من الحالات . وشبه رفضه

---

(١) الحيوان ، ج ٢ ص ٦

وقذفه لها من يديه، ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها، بالكلب إذا رجع يتبصبص بعد إطرادك له. وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة فى وزن طلبها والحرص عليها. والكلب إذا أتعب نفسه فى شدة النباح، مقبلا إليك ومدبرا عنك، لهث واعتراه مايعتريه عند التعب والعطش. وعلى أننا ما نرمى بأبصارنا إلى كلابنا وهى رابضة وادعة إلا وهى تلهث، من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها والذى طبعت عليه من شأنها، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين[١]»

وأورد فى موضع آخر مثلا ثانياً لدفاع المتكلمين عن القرآن، وتبرئته من مطاعن الطاعنين فى مسألة تتصل كذلك بالتشبيه فى قوله تعالى: (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ). فقد قال «أهل الطعن والخلاف: كيف يجوز أن يضرب المثل بشىء لم نره فنتوهمه، ولا وصف لنا صورته فى كتاب ناطق أو خبر صادق؟! ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها، وعلى أنه لو كان شىء أبلغ فى الزجر من ذلك لذكره، فكيف يكون إنسان كذلك، والناس لا يفزعون إلا من شىء هائل شنيع قد عاينوه، أو صوره لهم واصف صدوق اللسان بليغ فى الوصف، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق!»،

ويورد الجاحظ زعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تنبت ببلاد

---

(١) الحيوان، جـ ٦ ص ٦ — ٧

اليمين لها منظر كريه ، ثم يقول : « والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا ماعنى إلا رؤوس شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومَرَدتهم » .

ثم يرد الاعتراض بقوله : « قلنا و إن كنا نحن لم نر شيطانا ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده ... فنى إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه فى الحقيقة أقبح من كل قبح » . ويمهد لهذا القول بحديث عن الشياطين و إثباتها من أقوال الجاهليين والرسول وعمر والأخبار الشائعة بين العرب ، ويتبعه بإيراد زعم العامة فى الغول والشيطان [1]

كما رد أقوال المعترضين على قوله تعالى : (وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النحلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجبالِ بيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فاسلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ثم قاده الرد إلى الحديث عن المجاز العقلى فى اللغة ، وقال : « ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم من القرآن قليلا ولا كثيرا . وهذا الباب هو مفخر العرب ، وبه قال و بأسبابه اتسعت »

---

(١) الحيوان ، ج ٦ ص ٦٤ — ٦٦

فهو هنا يقرر أن فهم المجاز العربى أمر لابد منه ، وأن جاهله لايستطيع فهم شىء من القرآن

عنى المتكلمون بفهم القرآن ومافيه من ألوان التشبيه والمجاز والبديع ، وجادلوا فى تعبيراته ، وأداهم هذا الجدل إلى التفنن فى الأداء اللفظى ، والبحث فى المسائل البلاغية ، حتى كان فيهم البلغاء والخطباء والأبيناء ، وحتى حاول بعض الفقهاء أن يتشبه بهم فى البيان فأتى بالمضحك . قال الجاحظ . بعد أن تحدث عن الاستعمالات المجازية لذُق وأ كل فى القرآن والشعر العربى : « وقال بعض طبقات الفقهاء ممن يشتهى أن يكون عند الناس متكلما : ماذقت اليوم ذواقا على وجه من الوجوه ، ولا على معنى من المعانى ، ولا على سبب من الأسباب ، ولا على لون من الألوان · وهذا من عجيب الكلام »[١]

وقد ألف بعض المتكلمين فى إعجاز القرآن ونظمه ومعانيه ـ كما سنأتى الاشارة إليه ـ و بالغ بعضهم فى الجدل حول القرآن كابن الراوندى ، «الذى لم يكن فى نظرائه فى زمنه أحذق منه بالكلام ولا أعرف بدقيقه وجليله»[٢] ؛ فقد ألف كتابا يطعن فيه على نظم القرآن ، نقضه عليه الخياط وأبو على الجبائى ، وهما من المعتزلة المتكلمين ، بل نقضه هو على نفسه[٣] .

---

(١) الحيوان ، جـ٥ ص ١٠

(٢) الفهرست ، ط مصر ص ٤

(٣) الفهرست ، ص ٥

وهكذا اتصل أصحاب الكلام والفلسفة بالبلاغة فى دور نشأتها، فكان منهم واصل بن عطاء، و بشر بن المعتمر ، وعمرو بن عُبيد ، وسهل بن هرون ممن عملوا فى بناء البلاغة . كما اتصلوا بها فى دور اكتمالها ؛ فكان منهم قدامة والجرجانى والزمخشرى ثم السكاكى الذى باعد بينها و بين الفن الأدبى وفلسفها، وكثير ممن بعدهم من الشراح والملخصين .

وكانت لهم طريقة خاصة فى معالجة البلاغة سنتحدث عنها من بعد .

وكان للفقهاء كذلك جولات فى ميدان البلاغة . ذلك بأنهم اعتمدوا على نصوص القرآن والسنة فى استنباط الأحكام الدينية ، فأدى بهم هذا إلى النظر فى أسلوب القرآن وبيانه ، والتأمل فى الألفاظ ودلالتها ، وفى طرائق التعبير ومراميها .

ولهذا رأينا محمد بن إدريس الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤هـ ، وهو أول من كتب فى أصول الفقه ، قد افتتح رسالته التى جعلت مقدمة لكتاب الأم بذكر البيان ماهو ، وقسمه إلى بيان القرآن ، وبيان السنة للقرآن ، والبيان بالاجتهاد وهو القياس . ثم ذكر أن فى القرآن عاما يراد به العام ، وعاما يدخله الخصوص ، وعام الظاهر وهو يجمع العام والخاص ، وعام الظاهر ويراد به الخاص .

وتوسع من بعده فى البحوث اللفظية البلاغية حتى صار الأصولى والفقيه ، حين فشت العجمة ، فى حاجة ماسة إلى تمام الإلمام بفن البلاغة العربية ، مع بقية فنون اللغة ، وحتى صارت بحوث البلاغة تحوى القسم الأكبر فى مقدمة علم الأصول . وقد زادت العناية بهذه المقدمة حتى صارت أهم ما يعنى به الأصوليون .

وشارك المفسرون فى البحث البلاغى ، ببيان ما فى الآيات القرآنية من بيان فنى وقوة أداء . وكان تفهم القرآن ، منذ عصر النبى ، مدعاة لا ريب إلى النظر فى أسلوبه ، كما كان لأصحاب الرأى حرية واسعة فى تأويل معانيه . واعتاد المفسرون ، بعد العصر الأول ، أن يشرحوا مافى الآية من بلاغة ونحو وصرف ، كما اعتاد البلاغيون أن يستمدوا أولى أمثلتهم من القرآن .

وقد أورد الجاحظ طرفا من تأويل المفسرين . ومن هذا ما نقله من قول النظام : « لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا فى كل مسألة ، فان كثيراً منهم يقول بغير رواية ، على غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم . وليكن عندك عكرمة ، والكلبى ، والسرى ، والضحاك ، ومقاتل بن سليمان ، وأبو بكر الأصم فى سبيل واحدة . وكيف أثق بتفسيرهم ، وأسكن إلى صوابهم ، وقد قالوا فى قوله عز وجل (وأن المساجد لله) : إن الله عز وجل لم يعن بهذه المساجد مساجدنا التى نصلى فيها ، بل إنما عنى الجباه ، وكل ماسجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة . وقالوا فى قوله تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » : إنه ليس الجمال والنوق وإنما يعنى السحاب . . . وقالوا فى قوله تعالى « ربِّ لمَ حشرتنى أعمى وقدْ كنتُ

بصيراً » — قالوا : يعنى أنه حشره بلا حجة [١] .

وكان يبغض تأويلهم البعيد ، فقال عنهم بعد إيراد ما سبق وغيره :

« وليس يؤتى القوم إلا من الطمع ، ومن شدة إعجابهم بالغريب من التأويل » [٢] .

وقال فى موضع آخر ، بعد أن ذكر أنواعا من التأويل : « تأولوا قوله تعالى (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً)، ولم يهلك الناس شىء كالتأويل » [٣] .

وكيفما كان الأمر فقد كان هذا التأويل مؤدياً ، فى كثير من الأحيان، إلى النظر فى المجاز وألوان البيان .

---

(١) الحيوان : ج١ ص ١٦٨

(٢) الحيوان : ج١ ص ١٦٩

(٣) الحيوان : ج٦ ص ١٦

وكان من أكبر العاملين فى بناء البلاغة جماعة اللغويين ، والنحاة ، والرواة . فقد عنى اللغويون والنحاة ببحث الألفاظ ودلالتها ، والعربية وقواعد بيانها ، وعرضوا لما فى النصوص من بلاغة عند شرحها ، كما نقل الرواة أحاديث الأدب وتحدثوا فى الاستعمالات المختلفة للكلمات.

والجاحظ يذكر هذه الجماعة ، فيقول : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى ، فوجدته لايحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش ، فوجدته لايتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيده ، فوجدته لايتقن إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلى عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات »(١) .

وقال : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الشعر إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل » .

ولكن هذا الحكم لا يؤيده ما ورد فى كتب الأدب من أنباء هذه الجماعة . فمن ذلك ما ورد من أن الأصمعى سئل عن بشار ومروان بن أبى حفصة . أيهما أشعر ؟ فقال . بشار . فسئل عن ذلك ، فقال . لأن مروان

---

(١) العمدة : ج ٢ ص ٨٤

سلك طريقاً كثر من يسلكه ، فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان فى عصره ، و بشار سلك طريقاً لم يسلك ، وأحسن فيه وتفرد به،وهو أكثر تصرفا وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً.ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل.

وقال : « زهير والنابغة من عبيد الشعر [1] » ، كما قال : « الزحاف فى الشعر كالرخصة فى الفقه لا يقدم عليها إلا فقيه » [2] . وحدث التوزى قال : « قلت للأصمعى من أشعر الناس؟ قال : الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيرا أو يأتى إلى المعنى الكبير فيجعله خسيساً ، أو ينقضى كلامه قبل القافية ، فاذا احتاج إليها أفاد معنى » . ثم سأل الأمثلة فأعطاه إياها ، وذكر له موضع الشاهد فيها [3] .

و بدا المبرد الحديث فى باب التشبيه بقوله : « وهذا باب طريف . . وهو بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين بعدهم». ثم يقول إن أحسن ذلك ، فى رأى الرواة جميعاً ، ماجاء لامرىء القيس فى كلام مختصر ، أى بيت واحد ، من تشبيه شىء فى حالتين بشيئين مختلفين ، وهو قوله :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً
لَدَى وكرها العُنَّابُ والَحشَفُ البالى

---

(١) العمدة ، ج١ ص ٨٧
(٢) العمدة ، ج١ ص ٩١
(٣) العمدة ، ٦ ج ٢ ص ٤٦

فالرواة إذا كانوا يتحدثون فى التشبيه ، واللغويون كانوا يعرضون لعلم الشعر الذى جردهم الجاحظ منه وقصرهم على الغريب ومعرفته .

بل إن الآية على الجاحظ نجدها عند الجاحظ نفسه، فقد نقل تعريف الأصمعى للبليغ بأنه من طبق المفصل وأغناك عن المفسر ، وعنى بتأويله وتفسيره (١) .

كما نقل قول ابن الأعرابى : « قال لى المفضل الضبى : قلت لأعرابى منا : ما البلاغة ؟ قال : الإيجاز من غير عجز ، والأطناب فى غير خطل . قال ابن الاعرابى : فقلت للمفضل : ما الإيجاز عندك ؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعيد . قال ابن الاعرابى : قيل لعبد الله بن عمر : لودعوت الله لنا بدعوات ! فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا ! فقال رجل : لو زدتنا يا أبا عبد الله ! فقال : نعوذ بالله من الإسهاب » (٢) .

وقال الجاحظ إن الرواة هم الذين سموا ألوان التعبير البيانى المستحدثه باسم البديع (٣) .

وقد ألفوا كتباً فى البلاغة ، أو على الأقل فيما يتصل بها . فيونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣هـ له كتاب معانى القرآن (٤) ، والكسائى المتوفى سنة ١٩٧ له كتان معانى القرآن (٥) ، وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ له

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ٨٦

(٢) البيان ، جـ ١ ص ٨١

(٣) البيان ، جـ ٣ ص ٢٤٣.

(٤) الفهرست ، ص ٦٣

(٥) الفهرست، ص ٩٨

كتاب إعجاز القرآن ، وغريب القرآن ، ومعانى القرآن [١] ، والأصمعى المتوفى سنة ٢١٠ له كتاب معانى الشعر [٢] ، والأخفش المتوفى سنة ٣١٥ له كتاب تفسير لغة القرآن [٣] ، وأبو عبيد القاسم المتوفى سنة ٣٣٤ له كتاب معانى القرآن [٤] ، وأبو العميثل المتوفى سنة ٣٤٠ هـ له كتاب معانى الشعر [٥] وأبو حاتم السجستانى المتوفى سنة ٢٥٥ له كتاب الفصاحة [٦] ، والمبرد المتوفى سنة ٣٨٥ له كتاب الكامل ، وكتاب البلاغة ، وكتاب معانى القرآن [٧]

ولو بلغتنا جميع هذه الكتب لاستطعنا تقدير جهدهم فى دقة ، ولكنه يمكننا بدلالة الشاهد على الغائب أن نتبين فى مقاربة هذا الجهد .

وسيأتى الحديث عن أبى عبيدة وكتابه . و بين أيدينا كتاب الكامل للمبرد . وقد بين مؤلفه الغرض منه فى قوله : «والنية فيه أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنياً» [٨] . وهذا غرض لغوى يصرف ملتمس البلاغة عن النظر فى الكتاب ، لكن بالكتاب على هذا بحوثاً بلاغية لا نجد لها مثيلا عند معاصريه تمتاز بالتقسيم والتفصيل .

---

(١) الفهرست ، ص ٨٩
(٢) الفهرست ، ص ٨٢
(٣) الفهرست ، ص ٧٨
(٤) الفهرست ، ١٠٦
(٥) الفهرست ، ص ٧٣
(٦) الفهرست ، ص ٨٧
(٧) الفهرست ، ص ٨٨
(٨) الكامل ، ج ١ ص ٢

قسم الكلام إلى ثلاثة أضرب : أصل وكناية ومثل ، فقال :

« والكلام يجرى على ثلاثة ضروب ، فمنه مايكون فى الأصل لنفسه ومنه ما يكنى عنه بغيره ، ومنه ما يقع مثلا فيكون أبلغ فى الوصف » . ثم ذكر أن الكناية تقع على ثلاثة ضروب ، أحدها ، التعمية والتغطية [1] ، وثانيها الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى مايدل على معناه من غيره ، وثالثها التفخيم والتعظيم . وضرب الأمثلة لكل منها [2] . والأول يعنى ترك الاسم والدلالة عليه باسم آخر أو وصف ، كالتكنية عن الثريا ببنت الأصغر بنجم الثريا [3] . ومن الثانى استعمال القرآن الرفث والملامسه كناية عن الجماع . وكذلك استعمال الجلود كناية عن الفروج فى قوله تعالى : (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) .

وجاء عنده فصل عن التشبيه ، تحدث فيه مطنباً عن التشبيهات العجيبة والمصيبة والحسنة والمستحسنة والمتجاوزة والمفرطة والغريبة والمفهومة وغير المفهومة والجامعة ، ثم أجمل القول فذكر أن العرب تشبه على أربع أضرب : تشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد [4] كما تحدث عنه فى عدة مواضع أخرى عدا هذا الباب [5] .

وعالج بعض مسائل أخرى بلاغية فى مواضع متفرقة من كتابه ، فتحدث

---

(١) ج ٢ ص ٤٠ – ٤١ (٢) ج ٢ ص ١٢

(٣) ج ١ ص ٢٥٨ (٤) ج ٢ ص ٦٥ – ١١٦

(٥) ج ١ ص ٢٢ و ٢٣ و ٦١ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٢٩ و ١٤١ و ٣٠٠ و ج ٢ ص ١٦٥ و ١٦٦

عن التعقيد اللفظى والمعنوى ، حتى قال : « ومن أقبح الصور وأهجن الألفاظ وأبعد المعانى قوله :

وما مِثْلُه فى الناس إلا مُمَلَّكاً أبو أُمِّهِ حىٌّ أبوه يُقَارِبه »

وشرح البيت وما فيه (١) .

وكان المجاز عنده بمعنى التفسير والتأويل (٢) . ومن هذا قوله تفسيراً للفظ الطعام : « وقوله ياطغام الأحلام ، فمجاز الطغام عند العرب من لا عقل له ولا مذمة عنده » (٣) .

أما المثل فأتى بمعنى المجاز أو الاستعارة . ومن هذا قوله « الموطأون أكنافا مثل ، وحقيقته أن التوطئة هى التذليل والتمهيد ، يقال فى المثل فلان فى كنف فلان ، كما يقال فلان فى ظل فلان وفى ذرى فلان وفى ناحية فلان وفى حيز فلان (٤) .

وفى قوله : «عما سمى بعد استعارة تبعية حرفية : «فى المثل ذهب فلان فى حاجتى فارتدع عنها . ومثل هذا قولهم :فلان على الدابة وعلى الجبل أى فوق كل واحد منهما ، ثم تقول : فلان عليه دين تمثيلا» (٥) ، وفى قوله : عن المجاز العقلى : ومن أمثال العرب إذا طال عمر الرجل أن يقولوا أكل عليه الدهر وشرب ، إنما يريدون : أنه أكل هو ، وشرب هو دهراً

---

(١) ج ١ ص ١٤ و ١٥ (٢) ج ١ ص ١٨٨ و ٢٤٥ و ٣٠١
(٣) ج ١ ص ١٤ (٤) ج ١ ص ٣
(٥) ج ١ ص ٢٠

طويلا ... والعرب تقول نهارك صائم وليلك قائم ، أى أنت قائم فى هذا ، وصائم فى ذاك ، كما قال الله عز وجل : (بل مكر الليل والنهار) . والمعنى ، والله أعلم : بل مكركم فى الليل والنهار » (١) . ونحو هذا كثير . (٢)

لكن لفظ الاستعارة ورد عنده كذلك فى قوله : « والمغل الذى عنده غلول وهو مايختزن ويحتجن ، ويستعمل مستعاراً فى غير المال (٣) .

وفى قوله . « ويقال يصرصر يعنى يصوت ، يقال : صرصر البازى والصقر وما كان من سباع الطير ، ويقال صرصر العصفور . وأحسبه مستعاراً لأن الأصل فيه أن يستعمل فى الجوارح من الطير »(٤) . وقوله فى تفسير مؤذن بشحاج : إنما هو استعارة فى شدة الصوت ، وأصله للبغل ، والعرب تستعير من بعض لبعض »(٥)

وقد يكون كتابه البلاغة أدخل فى البحث البلاغى بدلالة اسمه . أما كتابه المعانى ، مثل كتب غيره التى بهذا الاسم ، فانه يدل على مصوغاتها وله فى آخر باب التشبيه : « والتشبيه باب لا آخر له ، وذكرنا منه طرفاً لئلا يخلو هذا الكتاب من شىء من المعانى » .

ولعل فى هذا الكفاية للتدليل على الأثر القوى للغويين والرواة فى تاريخ البلاغة العربية .

---

(١) ج ١ ص ١٠٤ (٢) ج ١ ص ٧٦ و ٩٢ و ٩٧ و ١٠١ و ١٥٢ و ١٩٤ و ١٩٥ و ٢١٣ و ٢٢٠ و ج ٢ ص ١٠٣ (٣) ج ١ ص ١٧٢

(٤) ج ١ ص ١٠٥ (٥) ج ١ ص ١٣٤ و ١٣٥

ولا ينبغى اغفال الشعراء . فقد كانوا فى الجاهلية مصدر الأحكام الفنية كما تصورها الروايات القديمة . وكانت لهم كذلك مثل هذه الآراء فى العصور الأولى للاسلام . وسيأتى طرف منها . ويزخر كتاب الأغانى والعمدة لابن رشيق بالكثير . وظلت الحال كذلك الى سنة ٢٤٧ فألف الخليفة الشاعر ابن المعتز كتابه البديع . وقد تحدث فيه عن نفسه فقال . « وما جمع فنون البديع ، ولا سبقنى اليه أحد » ، كما قال فيه الشعراء ، « . . . البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم ، فلا يعرفون هذا الاسم ولايدرون ماهو »(١)

وتحدث فى هذا الكتاب عن خمسة فنون، رأى قصر البديع عليها ، وهى : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى ، كما أورد محاسن كلامية أخرى ، ترك لمن يشاء الرأى فى عدها من فنون البديع ، وهى . اثناعشر : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، وهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والافراط ، وحسن التشبيه ، وحسن الابتداءات .

(١) كتاب البديع ، ط هرتفورد سنة ٩٣٦ ص ٥٨ .

وكان غرضه من تأليفه « إثبات أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب المدح »[١] ، وإن كان المحدثون قد أسرفوا في استعماله . ولهذا يتحدث عن كل لون من هذه الألوان ، ثم يورد له الأمثلة من القرآن ، فالحديث النبوي ، فكلام الصحابة ، فالشعر قديماً وحديثا . وهو يحافظ على هذا النظام متى كان لديه من الأمثلة ما يكفي لاستعماله ، ولكنها كثيراً ما تقصر عن هذا الاستكمال ، خلا القرآن الكريم ، فانه لم يضل فيه مثلا لكل لون اللهم إلا المذهب الكلامي .

وقد كتب المستشرق كراتشكوفسكي – ناشر الكتاب – مقدمة بالإنجليزية جاء فيها عن أثره في تاريخ علم البديع : « إن لهذا الكتاب أثراً قويا فعالا في تطور هذا الفرع من المعرفة الذي ألف فيه ، وقل من الكتب في موضوعه من يدانيه تأثيراً في الأجيال التي أعقبته . بل ندر أن يجد الانسان في أي كتاب مسألة أساسية ليس لها أصل في كتاب ابن المعتز الذي نهج نهجا جديداً »[٢] .

ولا جرم كذلك أن الكتاب قد أثر في تاريخ علوم البلاغة كلها ، فقد كان البديع لذلك العصر – كما سيأتي – يشمل المعروف من ألوان البلاغة كلها وقد تحدث ابن المعتز فيه عن الاستعارة والتشبيه والكناية . ولا نستطيع الحكم على مقدار ابتكاره في هذه الفنون والمحاسن . لكن التشبيه

---

(١) ص ٣ (٢) ص ٦ من المقدمة

والاستعارة والتعريض أو الكناية قد سبق بها ، والمذهب الكلامى منقول عن الجاحظ . ومهما يكن من شىء فلو لم يكن له من جهد سوى التنظيم والجمع لكفاه .

* * *

هذه الطوائف كلها عملت فى نشأة البلاغة العربية ، والواقع أنه لم يكن هناك فاصل واضح بين كل واحدة وسواها . فكثيراً ما يكون النحوى لغويا راوية فقيها ، وكثيراً ما يكون المعدود فى طائفة مذكوراً فى غيرها . والتأليف لذلك العصر مثل لهذا الاختلاط .

— ١١ —

وبعد : فهل كانت نشأة علم البلاغة عربية خالصة، أو مشوبة بعوامل أجنبية .

رأينا أن البلاغة العربية قد وجدت لها بذور فى آخر العصر الجاهلى نماها الاسلام ، ومادار حول القرآن من بحث وجدل ، وما أوجدته الحياة الاسلامية من طوائف متعددة، تعنى بالبلاغة وحسن البيان ، وتعتمد فى عنايتها على التراث العربى القديم وما يتصل به .

وإذا صح أن نقارن بين بحوث البلاغة اليونانية ، وبحوث البلاغة العربية ، فلن يكون هذا فى دور نشأتها ، وإنما يكون فى دور نموها وتعقدها على أن الأثر الأجنبى لا يعدم دلائله فى تاريخ البلاغة لعصورها الأولى.

فالجاحظ قد نقل من الفرس واليونان والهنود تعريفات للبلاغة ، كما أورد ترجمة صحيفة هندية فى البلاغة . وذكر فى معرض مطاعن الشعوبية على العرب قولهم : « ومن أحب أن يبلغ فى صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب

ويتبحر فى اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند ... فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها . وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها . وهذه كتبها فى المنطق التى قد جعلت الحكماء بها تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب . وهذه كتب الهند فى حكمها وسيرها وعللها . فمن قرأ هذه الكتب عرف غور تلك العقول وغرائب تلك الحكم ، وعرف أين البيان والبلاغة ، وأين تكاملت تلك الصناعة»[١] .

وحين رد الجاحظ على قولهم ، ذكر أن الخطب للعرب والفرس فقط ولكنه قرر أن الهند لها معان مدونة ، وكتب مجلدة ، وأن اليونان لها فلسفة وصناعة ومنطق ، وأن صاحب المنطق كان عليما بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وخصائصه ، وأن جالينوس كان أنطق الناس ، فأقر جملة الكلام السابق . لكنه فضل العرب على هؤلاء جميعا بالارتجال والبداهة وعدم المكابدة والمعاناة[٢] .

ولعل الشعوبية كانوا يفخرون بما عندهم من أقوال فى البلاغة والبيان ، ولعل العرب كانوا يستمعون اليها فيحاولون أن ينسبوا الى العربية مثيلها ، وأن يستخرجوا من أقوال القدماء ما يثبت معرفتهم بمعانيها بل بما هو أكمل منها ، ولعل هذا كان من دوافع الجاحظ لأن يضع كتابا فى الخطابة يثبت فيه فضل العرب وسبقهم ، وذلك هو كتاب (البيان والتبيين) .

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٦ — ٧

(٢) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ١٤ — ١٥

وفى كتاب البيان والتبيين رواية ، قد تدل على نشاط الأجانب فى تعليم الناس أصول البلاغة، فيروى أنه قدقيل لريسموس اليونانى «مابال ريسموس يعلم الناس الشعر ولا يستطيع قوله؟ قال : مثله مثل المسن الذى يشحذ ولا يقطع» وهذاصريح فى أن ريسموس اليونانى كان يعلم الشعر للناس ويلقنهم أصوله ، وقوله هذا يذكر بتفريق أرسطو بين نقد الشعر وقرضه وتذوقه : ورده كلا من الثلاثة إلى ملكة تغاير الأخرى .

وقد يطعن على هذه الرواية بأن الجاحظ وضع رسموس فى باب (النوكى والمجانين) . لكن ردهذا الطعن غير عسير . ذلك بأن كل ماأورده الجاحظ عنه يدل على عقل سليم ، بل راجح ، وتعليمه الناس الشعر ينفى عنه الحمق والجنون [٢] .

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٦٥

(٢) ألح عليه بالشتيمة رجل وهو ساكت ، فقيل له : يشتمك مثل هذا وأنت ساكت ! فقال : أرأيت إن نبحك كلب أتنبحه ، أو رمحك حمار أترمحه وكان إذا خرج فى الفجر يريد الفرات ، ألقى فى دوارة بابه حجر حتى لايعاني دفعه إذا رجع . وكان كلما رجع وجد الحجر مرفوعا والباب منصفقا ، فعلم أن أحداً يأخذ الحجر من مكانه ، فكمن لصاحبه يوما ، فلما رآه قد أخذ الحجر قال : مالك تأخذ ما ليس لك ؟ قال : لم أعلم أنه لك . قال : قد علمت أنه ليس لك !

ورآه رجل يأكل فى السوق فقال : ما بال رسموس يأكل فى السوق ! قال إذا جاع فى السوق أكل فى السوق .

فهؤلاء الأجانب كانوا ينقلون معارفهم وكان العرب يتقبلونها كما هي حينا ، ويخضعونها لماضيهم العربي القديم وحياتهم الاسلامية الحديثة حينا آخر ، ويثيرون حولها جدلا طويلا وينقضونها حيناً ثالثاً ، ولكن موضوعات هذا الجدل نفسها كانت تؤثر فيهم ، كما هو الشأن في جميع المتجادلين .

وكانوا ، بحسن إلمامهم بالعربية ، قادرين على الملاءمة بين المعارف الأجنبية وطبيعة اللغة العربية . فعبد الحميد الكاتب كان يطبق أصول الفارسية على الكتابة العربية ، وموسى الأسوارى الفصيح في الفارسية والعربية ، ما كان يفسر القرآن بهما جميعاً[1] . ومن المحتمل أن يكون هذا ومثله يطبقون قواعد البيان الأجنبي في فهم القرآن وتفسيره ، وأن يتحدثوا معا عما ورد فيه من حقيقة ومجاز وغيرهما كما يتصورونها في لغتهم الأصلية .

والمتكلمون أصحاب فلسفة وجدل ومنطق ، وصلتهم بالبلاغة وثيقة كما سيأتي ، والفلسفة والمنطق علمان أجنبيان . وقد رأينا بعضهم يشترط للبراعة في البلاغة تمام الإلمام بالمنطق ، فمن القريب أن يدخل الأثر الأجنبي في البلاغة من طريقهم .

والفهرست لابن النديم يروى أن كتاب الخطابة نقل قبل نقل إسحاق المعروف ، فيقول : « الكلام على ريطوريقا ومعناه الخطابة يصاب بنقل قديم . وقيل : إن إسحاق نقله إلى العربي[2] » .

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ٢٣٤

(٢) الفهرست ، ص ٣٩٤

ويقول الأستاذ أمين الخولى تعليقا على هذا النص : « وإسحاق هذا هو إسحاق بن حنين المتوفى سنة ٢٩٨ هـ . فاذا كان للكتاب نقل قديم قبل نقل إسحاق ، وابن النديم يجعل النقلة القدماء هم الذين كانوا أيام البرامكة ، فيكون الكتاب على هذا قد نقل إلى العربية فى منتصف القرن الثانى الهجرى أو على الأكثر فى أواخره[١] ؛ وكانت إذاً كل بحوث الخطابة وأشباهها « بين يدى القوم فيما يتدارسونه باسم المنطق فى آخر القرن الثانى الهجرى. وهذا كاف وحده دون تعليق ما لبيان تأثير هذا المنطق فى البلاغة ونشأة فنونها »[٢].

ويصح كذلك القول بأن كتاب البيان والتبيين ألف معارضة لخطابة أرسطو ، كما ألف كتاب الحيوان معارضة لحيوان أرسطو . وملتمس الدليل لا يتعذر عليه وجوده . ذلك بأن كتاب البيان دار حول الخطابة، كما سيأتى، فى عصر خمدت فيه الخطابة .

وليس الجاحظ وحده هو الذى كتب فى هذا الموضوع ، بل إن المروزى المتوفى سنة ٢٧٤ هـ له كتاب البلاغة والخطابة[٣]. ومن قبله ألف الفضل بن نوبخت ، الذى كان ينقل فى خزانة الرشيد ، كتاب التشبيه

---

(١) محاضرة البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ، ص ١١

(٢) محاضرة البلاغة العربية ، ص ١٣ (٣) الفهرست ، ص ٢١٥

والتمثيل (١) : وأقرب من هذا أن نفترض رؤية الجاحظ لشعر أرسطو، فقد أشار إليه فى قوله : « واما الشعر فحديث الميلاد صغير السن . أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة، وكتب أرسطاليس ومعلمه أفلاطون » .

فالأدنى إلى الفهم من قوله كتب أرسطاليس، فى معرض الحديث عن الشعر، أنه يعنى كتابه الشعر، وأنه قد رآه أو سمع به على الأقل . وقد لا يعارض هذا أن أول نقل لكتاب أرسطو — حسب ما ترويه كتب الفهارس — هو نقل أبى بشر متى بن يونس المتوفى سنة ٣٣٨ ﻫ، فمن المحتمل أنهم كانوا يتذاكرون هذه الكتب على أيدى الأجانب من فارس والهند واليونان . وقد عرف الجاحظ كتاب الحيوان لأرسطو، مع أن ناقله هو ابن زرعة من مترجمى النصف الثانى للقرن الرابع .

على أن من ينكر رؤية الجاحظ لخطابة أرسطو يجد أدلة قوية. فلو أنه رأى هذا الكتاب أو سمع مسائل منه ، لعرض لها ولناقشها كما صنع مع ارسطو فى حديثه عن الحيوان ؛ و بخاصة مع ماعرف عن الجاحظ من التكرار والبدء والإعادة فى الموضوع الواحد، وحسن ترديده لما يسمعه حتى فى أتفه المسائل .

---

(١) الفهرست، ص ٣١٢ .

ولو انه علم به لماقال: « والبديع مقصور على العرب »[١]. وقد يبدو هذا النص متناقضاً مع ما نقله عن بلاغة الأجانب ؛ لكن هذا التناقض قد يتلاشى ، حين نذكر أن البديع عند الجاحظ يعنى فنون التعبير المستحدثة: من مجاز وتشبيه وكناية وغيرها، وأن البلاغة كانت تعنى عنده شيئاً آخر سيأتى بعد .

وقد ذكر كتب أرسطو: الكون، والفساد، والمنطق، والحيوان ، ولم يعرض لكتاب الخطابة بذكر ؛ وعد مختلف العلوم والفنون والصناعات التى جاءت من اليونان إلى العرب ، ولم يشر إلى البلاغة[٢] .

ونص ابن النديم على احتمال إصابة كتاب الخطابة بنقل قديم ، لايدل على أن هذا الكتاب ، بهذا النقل المحتمل، كان متداولا فى أيدى الكتاب إن لم يدل على أنه كان مجهولا فى المجهولات .

وابن تيمية نفسه، وهو من أنصار التأثير الأجنبى فى نشأة البلاغة ، لكى يقول إن تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز دخل العربية عن طريق الفلسفة الأجنبية ـ يقرر أنه شىء حادث بعد القرون الثلاثة الأولى[٣] . ولا ريب أن البلاغة قد نشأت فى هذه القرون الثلاثة .

***

---

(١) البيان ، جـ٣ ص ٣٤٣ (٢) الحيوان ، جـ١ ص ٤١

(٣) كتاب الإيمان ، ط مصر ، ٣٤

ولهذا كله ، ولما مر فى هذا الباب جميعه عند ذكر الطوائف المختلفة التى أثرت فى نشأة البلاغة ومادة بحوثها ، وللتدرج الطبيعى الذى بدأ من العصر الجاهلى - يستطيع الباحث أن يقرر مطمئناً أن نشأة البلاغة كانت عربية ؛ لكنه لا يستطيع أن ينكر أن العنصر الأجنبى قد اتصل بها ، فأخذ يؤثر فى تطورها ، ويبعدها عن الطريقة الأدبية العربية ويسيطر عليها ، حتى إذا اشتد سلطان هذا العنصر صارت فلسفة خالصة على أيدى السكاكى وأصحابه .

الباب الثانى

البلاغة قبل الجاحظ

العصر الجاهلى

وردت بعض ألوان بيانية فى أقدم المأثور من الشعر الجاهلى . فمعلقة امرىء القيس، كغيرها من المعلقات ، فيها من التشبيه وأنواع المجاز كثير. ولا نعرف فى دقة مدى تأمل الجاهليين فى هذه الألوان وحديثهم عنها . ولعله لو انتهى إلينا جميع ما قالته العرب، لجاءنا شىء أوفر فى هذا الباب .

أما ما بلغنا من أقوال ، على ما فيه من شك ، فلا يعدوا ألفاظاً عامة: من نحو ما يروى عن أكثم بن صيفى أنه قال — ولا نعلم متى فقد أدرك البعث و إن لم يسلم — البلاغة الايجاز (١) . وكأنما قد أنعم النظر فى الأساليب ، وسار فى خطبه على قاعدة معينة هى قاعدة الايجاز . و يقال إنه كان يتخذ كتاباً ، وكان يأمرهم ، إذ يكتبون لملوك الجاهلية، بالفصل بين المعانى المستقلة والوصل بين المعانى المتصلة ، وكأنه أدرك معنى الفصل والوصل وحال استعمال كل منهما .

وكان فى العرب كهان يزعمون أن مع كل منهم رئيا من الجن يلهمه القول كما يلهم الشاعر شيطانه . وكان الناس يتحاكمون اليهم، و يؤمنون برأيهم . وقد اصطنع هؤلاء الكهان الأسلوب المسجع يحكمون و ينفرون به (٢) .

---

(١) عروس الأفراح ، جـ ١ ص ١٣٠ .

(٢) البيان والتبيين، ط السندوبى الأولى ، جـ١ ص ١٩٥

وإذا كان الشاهد يدل على الغائب ، وكان الجاهليون بعيدين عن التفكير العلمى الصحيح ـ كان كل حديثهم ، فى هذا الباب ، يتصل بأوصاف عامة للبلاغة : من نحو وصف أكثم لها بالايجاز، وكان كل فهم يقوم فى جملته على الخبرة بأساليب التأثير ، كما يبدو من اصطناع الكهان الأسلوب المسجع الذى يسهل حفظه كالشعر ، ويقوى به التأثير فى نفوس السامعين .

العصر الإسلامى

وأتى الاسلام، فتحدث القرآن عن البيان وأثره، كالذى جاء فيه من أن موسى سأل الله حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، فقال عن حبسة بيانه: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى يَفْقَهُوا قَوْلِى). وأنبأنا الله عن تعلق فرعون بكل سبب، حين خبر بقوله: (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الذى هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يبين). وقال موسى: (وأَخِى هَرُونُ هو أفصحُ منى لِساناً فأَرْسِلهُ معىَ رِدْءاً يصدقنى)، وقال: (وَيَضِيقُ صدرى ولا ينطلق لِسانِى)، فاستجاب الله دعاءه، ومكنه من حسن الأداء لرسالته [1].

ومن الله على الإنسان بتعليم البيان فقال: (الرحمٰن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيانَ) [2]، وقال: (هذا بيانٌ للناسِ). ومدح القرآن بالبيان والعربية والإيضاح والتفصيل، وسماه فرقانا، وقال: «عربىٌّ مبينٌ»، وقال: (وكذلكَ أنزلنا قرآناً عربياً)، وقال: (ونزلنا عليك الكتابَ تِبياناً لِكل شىء)، وقال: (وكلَّ شىء فصلناه تفصيلاً)

---

(١) البيان والتبيين، جـ١ ص ٢٥. (٢) وقيل إنه عنى بالإنسان هنا النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون المراد بالبيان القرآن الذى فيه بيان كل شىء. وقيل الانسان آدم أو اسم جنس يشمل جميع الناس؛ ويكون المعنى أنه فضله ببيانه على جميع الحيوان. (لسان العرب، مادة بيان).

وذكر لنبيه حال قريش فى بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام ، والعرب وما فيها من الدهاء وبلاغة الألسنة واللدد عند الخصومة ، فقال : (إذَا ذَهَبَ الخوفُ سَلَقُوكم بألسنة حِدَاد) ، وقال : لِيُنذرَ به قوماً لداً) ، وقال : (ويشهدُ اللهَ على ما فى قلبه وهوَ ألدُّ الخصامِ) ، وقال : (أآلهتنا خيرٌ أمْ هوَ ما ضربُوه لكَ الا جدَلا بلْ همْ قومٌ خصمونَ) . ثم ذكر خلابة ألسنتهم فقال : (وانْ يقولوا تسمعْ لِقولهم) ثم قال : (ومن الناس منْ يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) مع قوله : (واذا تولى سعى فى الأرض لِيفسدَ فِيها ويُهلكَ الحرْثَ والنسل)(١)

وقال تعالى : (وما أرسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ بلِسَانِ قَوْمهِ لِيُبَيِّنَ لهم) لأن مدار الأمر على البيان والتبين والافهام والتفهيم . وضرب الله مثلا لعى اللسان ورداءة البيان ، حين شبه أهله بالنساء والولدان ، فقال تعالى : (أوَمَنْ يُنشَّأ فى الحِلْيَةِ وَهوَ فى الخِصَامِ غيْرُ مُبين) (٢)

وعرفت فى الحديث النبوى أمثال كثيرة ومجازات بليغة(٣) كما نسب إلى النبى رواية القول البليغ ومدح البيان . فيقال : « إن رسول الله هو الذى روى كلام قس بن ساعدة ، وموقفه على جمله بعكاظ ، وأمر عظته . وهو رواه لقريش والعرب ، وهو الذى عجب من حسنه وأظهر من تصويبه(٤) ،

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٢٦

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ : ص ٢٧

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ : ص ٢٧ – ص ٣١

(٤) البيان والتبيين ، ج ١ : ص ٢٦

ويروى أن رسول الله لما سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر قال عمرو : «مانع لحوذته ، مطاع فى أذينه» . فقال الزبرقان : (أما إنه قد علم أكثر مما قال ، لكنه حسدنى شرفى » . فقال عمرو : « أما لئن قال ماقال فوالله ماعلمته إلاضيق الصدر زمر المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى » . فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول ، ورأى الإنكار فى عين رسول الله ، قال : يارسول الله ! رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ماعلمت . وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الآخرة ! فقال النبى بعد ذلك : إن من البيان لسحرا (١) .

وقال العباس بن عبدالمطلب للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، فيم الجمال ؟ قال : فى اللسان (٢) .

وهذان الحديثان يدلان على مبلغ تقدير النبى للقول البليغ والبيان السليم .

وإذا كان قول الرسول سهلا لاتكلف فيه ولا إغراب ، فإن له من الأحاديث مايدل على أن ذلك مذهبه البلاغى . فقد قال إن الله يبغض البليغ يتخلل كماتتخلل الباقرة الخلى بلسانها (٣) . وقال : « إياى

---

(١) البيان والتبيين ، حـ ١ : ص ٢٦
(٢) البيان والتبيين ، حـ ١ : ص ١٢٧
(٣) البيان والتبيين ، حـ ١ ص ١٨٥ ، وأورد الترمذى فى صحيحه هذا =

والتشادق (١) ». وقال : « أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون » (٢) وقال : « من بدا جفا ». وقال الجاحظ بعد هذه الأحاديث : « وعاب الفدادين والمتزيدين فى جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق ورحب القلاصم وهدل الشفاه ، وأعلمنا أن ذلك فى أهل الوبر أكثر وفى أهل المدر أقل. فاذا عاب المدرى بأكثر مما عاب به الوبرى ، فما ظنك بالمولد القروى ، والمتكلف البلدى !

= الحديث بالنص الآتى : إن الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة (جـ ٢ : ١٣٩) . وجاء فى السراج المنير شرح الجامع الصغير جـ ١ ص ٣٩٧ ما يأتى : « إن الله يبغض البليغ من الرجال » أى المظهر التفصح الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها . قال العلقمى قال فى النهاية أى يتشدق فى الكلام بلسانه ، ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفا اهـ . وخص البقرة لأن جميع البهائم تتخذ النبات بأسنانها وهى تجمع بلسانها . أما من بلاغته خلقيه فغير مبغوض .
العاص . قال الترمذى حديث غريب «حم» أحمد فى مسنده . د «أبو داود . ت»

(١) ، (٢) جاء فى الترمذى جـ ١ ص ٣٦٣ الحديث الآتى : (إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون . قالوا : يارسول الله ، قد علمنا الثرثارن والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون) . وقال عنه : هذا حديث حسن .

(٣) جاء فى السراج المنير ، جـ ٤ ص ٣٧٩ : ,, (من بدا) بدال مهملة (جفا) . فى النهاية : أى من سكن البادية غلظ طبعه لقلة مخالطة الناس .

فالحصر المتكلف ، والعيّ المتزايد ألوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده وهو أعذر لأن الشبهة الداخلة عليه أقوى . فمن أسوأ حالا ، أبقاك الله ممن يكون ألوم من المتشدقين ومن الثرثارين المتفيهقين ، وممن ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نصا وجعل النهي عن مذهبه مفسرا ، وذكر مقته له و بغضه إياه ! »(١).

ولما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يسهل ترجمته، ومالا يخفى منه شيء على من له أدنى معرفة في العربية . ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب، كوائل بن حجر وأكيدر صاحب دومة الجندل، فخم اللفظ، لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله(٢)

ويروى عنه أنه قال : « نضر الله وجه رجل أوجز فى كلامه، واقتصر على حاجته»، كما عرف عنه إنكاره على من يتكلفون السجع فى الكلام ، وأثر فى هذا قوله : « أسجعاً كسجع الكهان ! » (٣)

وقال لجرير بن عبد الله البجلي : « ياجرير إذا قلت فأوجز ، و إذا بلغت حاجتك فلا تتكلف ! » (٤).

= والجفاء غلظ الطبع ا هـ وقال المناوى : أى من سكن البادية صار فيه جفاء الأعراب ، لتوحشه وانفراده وغلظة طبعه وبعده عن لطف الطباع .

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٢٩

(٢) الصناعتين ، طبعة ثانية ، ص ١٤٧ و ١٤٨

(٣) الصناعتين ، طبعة ثانية ، ص ٢٥٠

(٤) الكامل للمبرد ، ط مصر ، ص ٤

فكان رسول الله من أشد المحافظين على أن يكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال . يوجز فى موضعه ، ويطنب فى موضعه ، ويؤكد حين ينبغى التأكيد ، ويرسل حين يحسن الارسال ؛ بل لقد بلغ من محافظته على هذه القاعدة أن يتخذ ألفاظ القبيلة الخاصة بها حين يخاطبها ، كصنيعه فى مخاطبة حمير وغيرها . وقد روى عنه قوله : لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»[1] .

وقال : نصرت بالصبا وأعطيت جوامع الكلم» ، وهو القليل الجامع للكثير[2] ، وهذا يدل على أن الله خصه بالايجاز وقلة اللفظ مع كثرة المعنى[3]

ولئن رأينا له أحاديث موجزة ودعوة إلى الايجاز . لقد رويت كذلك عنه خطبة الوداع ، وفيها من ألوان الاطناب والتكرار للتأكيد كثير

ويقول الجاحظ ، بعد ايراد فنون من قول الرسول: وأنا أذكر بعد هذا فنا من كلامه (صلى الله عليه وسلم) ؛ وهو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله وتبارك وتعالى : قل يا محمد (وما أنا من المتكلفين). وكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط فى مواضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ![4] .

---

(١) البيان والتبين ، ج ٢ ص ٤١ (٢) البيان والتبيين، ج ٣ ص ٢٣٨

(٣) البيان والتبين، ج ٢ ص ٣٥ و ٧٦ (٤) البيان والتبيين، ج ٢ ص ١٤

وعلق على قول رسول الله « لا خلابة » ، فقال : « فالقصد من ذلك أن تجتنب السوق والوحشى ، ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصار بلاغ ، وفى التوسط مجانبة للوعورة ، والخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه » (١)

و إذن فمذهب الرسول البلاغى : أن يكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، بريئاً من التعقيد والتكلف والاغراب ، مجرداً من التصنع .

---

(١) البيان والتبيين ، حـ١ ص ١٧٦ .

الخلفاء الراشدون

وسار الخلفاء الراشدون على سنة الرسول فى البيان، وكانت لهم خطب وأقوال مأثورة وعناية بالشعر والأدب.

ومن خطب أبى بكر وأقواله، التى تشبه التوقيعات، يبدو ميله الواضح إلى الإيجاز (١).

وقد فسر الايجاز وحكمته فى قوله ليزيد بن أبى سفيان، حين بعثه على رأس جيش لنجدة عكرمة بن أبى جهل فى فتح الشام: «وإذا وعظتهم — يعنى الجند — فأوجز، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا»

وكان ينظر فى الشعر ويفاضل بين الشعراء. فيروى أنه كان «يقدم النابغة ويقول: «هو أحسنهم شعراً، وأعذبهم بحراً، وأبعدهم قعراً» (٢)

وكان عمر معجباً بزهير، أنشد له شعراً حتى بلغ قوله:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

فجعل يتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ويقول: لا يخرج

---

(١) عيون الاخبار، ط دار الكتب، جـ ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٤، جـ ٣ ص ٥٣

(٢) العمدة لابن رشيق، ط مصر الاولى، جـ ١ ص ٦٠

الحق من إحدى ثلاث إما يمين أو محاكمة أو حجة [١].

وروى أن ابن عباس سأله عن سبب تفضيله زهيراً على الشعراء فقال « لأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه » [٢].

ونسب إليه توجيه الشعراء فى القول، واعتراف الحطيئة له بفقه مذاهب الشعر . فيروى أنه قال للحطيئة : إياك والهجاء المقذع ! قال : وما المقذع يا أمير المؤمنين ؟ قال : المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبنى شعراً على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم . فقال : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر [٣].

فالبلاغة عند عمر : تجنب التعقيد ، وترك الغريب والوحشى، والبعد عن المبالغة والكذب .

وكان على كذلك من أنصار السهولة ، فعرف البلاغة بأنها إيضاح الملتبس بأسهل عبارة . وقريب منه قول الحسن ابنه : « البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة »، وقول محمد ابنه : « البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ » .

كما كان يفخر بالفصاحة ويعدها من خصائص قريش . وروى عنه

---

(١) عيون الاخبار، ج ١ ص ٦٧ (٢) الاغانى ط ساسى، ج ٩ ص ١٣٩
(٣) العمدة ، ج ٢ ص ١٣٨ (٤) الصناعتين ، ص ٥٠
(٥) البيان والتبيين، ج ٢ ص ٨٥

قوله : «ما رأيت بليغاً قط إلا وله فى القول إيجاز وفى المعانى إطالة». فالبليغ عنده، بعد مراعاة السهولة ، هو الموجز الذى يضع كثير المعانى فى قليل الألفاظ . ووصفها بالإيجاز يتمشى مع الاتجاه القديم ، الذى غلب عليها فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وإن كان القرآن لا ريب قد مهد للإطناب وجعل الناس يقدرون أثره فى تقرير المعانى و إيضاحها .

معاوية

وكان معاوية يقدر الإيجاز ، ويعتبر الإشارة الصائبة البلاغة الحقة.[1] وقد رويت له أحاديث عن البلاغة ، مع بعض الأعراب وغيرهم ، تدل على عنايته بأمرها وقدره لها . فسأل صحار بن عياش العبدى عن البلاغة عند قومه ، فقال له : الايجاز . وسأله عن الإيجاز فقال أن تجيب فلا تبطىء ، وأن تقول فلا تخطىء . ولكن هذا الجواب لم يعجب معاوية ولم يره قد وفى بشرط الإيجاز ، بل رأى صحارا الذى يعرف البلاغة بالإيجاز يطيل ، فقال له منبهاً : «أ كذلك تقول؟ !» ، فتنبه صحار وأدرك خطأه وأجاب مصححاً : «أقلنى يا أمير المؤمنين ! لا تبطىء ولا تخطىء» . وذلك أن قولك لا تخطىء متضمن بالقول وقولك لا تبطىء متضمن بالجواب ، فلا داعى لذكرهما[2] .

---

(١) البيان ، ج١ ص ١٩٩ (٢) البيان ، ج ١ ص ٨١

وسأل معاوية عن الخصائص البلاغية لبعض القبائل [١] ، وتحدث إلى الأبيناء وأعجب بقولهم [٢] . وهكذا عنى معاوية بأمر البلاغة ، بل اعتبرها خير عون له فى تنفيذ سياسته ؛ فقال لمن فخر بزياد عنده : « اسكت ، فوالله ما أدرك صاحبك شيئاً بسيفه ، إلا أدركت أكثر منه بلسانى » [٣] .

وكان الإيجاز ركن البلاغة الأول عندهم . سأل معاوية عمرو بن العاص : من أبلغ الناس ؟ فقال : أقلهم لفظاً ، وأسهلهم معنى ، وأحسنهم بديهة [٤] . وسموا الإكثار عيًّا ؛ فيروى أن ربيعة الرأى تكلم يوماً ، فأكثر وأعجب بالذى كان منه ، فالتفت إلى أعرابى كان عنده ، فقال : يا أعرابى : ما تعدّون العىّ فيكم ؟ قال : ما كنت فيه منذ اليوم [٥] ! واستعاذوا بالله من الإسهاب . فقد قيل لعبد الله بن عمر : لو دعوت الله إلينا بدعوات ! فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا ! فقال رجل : لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن ! فقال : نعوذ بالله من الإسهاب [٦] . وتكلم عمار بن ياسر يوماً فأوجز ، فقيل له : لو زدتنا ! فقال : أمرنا رسول الله بإطالة الصلاة وقصر الخطبة .

---

(١) البيان ، جـ١ ص ٩٤ وجـ٣ ص ١٢٧
(٢) البيان ، جـ١ ص ٢٠٧ (٣) البيان ، جـ ١ ص ١٧٨
(٤) مجانى الادب ، ط بيروت ، جـ٣ ص ١٤١
(٥) البيان والتبيين ، جـ١ ص ٨٤ (٦) البيان والتبيين ، جـ١ ص ٨١

***

انتهى هذا العصر . والكلمات الواردة فى هذا الباب لاتعدو البلاغة والفصاحة والبيان والايجاز والاطناب والأسهاب والعى والتشدق والتفهيق ، وما إليها من الألفاظ بمعانيها اللغوية العامة . ثم أتى عصر آخر كثر فيه العلماء والكتاب والأدباء ، فجاءت كلمات لبعضهم فى البلاغة لا تخلو كذلك من الايهام . وسأفرد المعروفين منهم بكلمات فى الناحية البلاغية .

واصل بن عطاء

٨٠ — ١٣١

ومن هؤلاء واصل بن عطاء ، رأس المعتزلة وداعية مذهبهم ؛ متكلم خطيب ، معروف بقوة الجدل والتصرف فى فنون القول .

ومن مؤلفاته كتابا معانى القرآن والخطب فى التوحيد والعدل . ولا ندرى أى طريق سلك فى تأليفهما ، لكن لا يبعد أن يكون خطابيا بلاغياً .

والجاحظ ، وإن لم يورد له أقوالا فى البلاغة ، قد أطال الحديث عنه فى صدر كتابه « البيان والتبيين » ، ونسب إليه العلم بأن الخطابة فى حاجة

إلى البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، وبأن من تمام آلة البيان سلامة النطق وصحة مخارج الحروف ، فوق المعانى وجزالتها .

ولهذا وللثغته ، أسقط الراء من كلامه ، وذكر أقوالا تصف حجته القوية ، ومنطقه الدقيق ، وموهبته الجدلية ، وتبريزه فى الارتجال وإصابة المعانى المقصودة [١] .

عبد الحميد الكاتب

ت ١٣٢

وعبدالحميد بن يحيى ، هو صاحب مذهب السهولة فى البلاغة والبيان ، وعنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا [٢] . ويروى عنه قوله : «خير الكلام ما كان لفظه فحلا ومعناه بكراً » . وكان شديد الاعتزاز ببلاغته ، فاستشفع أمام المنصور ، حين قرر هذا قتله ، بقوله : « إنى فرد الزمان فى الكتابة والبلاغة » .

وكان يجيد الفارسية ، بل إن أبا هلال العسكرى يصفه بتطبيق أصول الكتابة الفارسية على العربية ، وبنقل بلاغة الأولى إلى الثانية ، فيقول : «ومن عرف ترتيب المعانى واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ،

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ٣٠ — ٤٤

(٢) الفهرست ، ط. مصر ، ص ١٧ ؛ وابن خلكان جـ١ ص ٤٣٥

ثم انتقل إلى لغة أخرى، تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له فى الأولى . ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى ، فحولها إلى اللسان العربى ؟ فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى ، وتصحيح اللفظ ، والمعرفة بوجوه الاستعمال[1] » .

وكان له فن بلاغى متميز، ضرب به البحترى المثل فى قصيدته إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، إذ قال :

وتفننت فى البلاغة حتى عطل الناس فن عبدالحميد

و وصيته للكتاب مشهورة ، وفيها اعتزاز بفن الكتابة و بيان لخطر الكتاب. ومنها قوله : « فنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف العلم والأدب وتفقهوا فى الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم . . . وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها[2] » .

فهو يرى الثقافة أمرا لا مناص للكاتب منه ، و بخاصة ثقافة الدين والقرآن والعربية ، بالقياس إلى الكتاب فى الدولة العربية .

وقد وصفه الجاحظ ببلاغة اللسان والقلم ، وعده من المقدمين فى طبقة

---

(١) الصناعتين ، ص ٦٦ — ٦٧

(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ، ط الحلبي ، ص ٨٢

المعلمين الذين يشرفونها[1] .

ابن المقفع

ت ١٤٢

ولابن المقفع أقوال في البلاغة تدل على مذهبه في السهولة ، وتجنب الغريب والوحشي والمبتذل السوقي ، وتقريب المعنى من الأفهام ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال قال لأحد الكتاب : « إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العي الأكبر » . وقال لآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » . وقيل له : « ما البلاغة ؟ فقال : هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » ، أي تقريب المعنى من فهمه ، حتى يخال اللفظ في متناوله .

وربط بين الجدل والبلاغة حين قال : « البلاغة كشف ما أغمض من الحق ، وتصوير الحق في صورة الباطل » . وأبو هلال يشرح هذا القول ، فيقول : « إن الكاتب كثيرا ما يحتاج إلى الاعتذار عن الخطأ أو رفع منزلة دني أو خفض مكانة شريف . وليست العبرة بإظهار الصحيح ، وإنما الشأن في تحسين ما ليس بحسن » .

وفسر البلاغة تفسيرا عده معاصروه طريفا ، فقال إسحق بن حسان

---

(١) البيان والتبيين ، جـ ١ ص ١٥١ و ١٧٥

ابن فوهة : « لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط . سئل: ما البلاغة؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها مايكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الاشارة ، ومنها ما يكون فى الحديث ، ومنها مايكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطبا ، ومنها مايكون رسائل . فعامة مايكون من هذه الأبواب الوحى فيها والاشارة إلى المعنى ، والايجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين ، فالاكثار فى غير خطل ، والاطالة فى غير إملال . وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته » .

وكأنه يقول ، كما يشرح الجاحظ : «فرق بين صدر خطبة النكاح و بين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المواهب ، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فانه لاخير فى كلام لايدل على معناك» . وكأنه يقول كذلك : ليست البلاغة خطابة وحدها ولا كتابة وحدها ، و إنما هى خطابة و رساله و وحى و إشارة ؛ وكما تكون فى الايجاز تكون فى الاطناب ، وهى المطابقة لمقتضى الحال ، أو إعطاء كل مقام حقه على حد تعبيره فى قوله لمن سأله : فان مل المستمع الاطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف : «إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنه

لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك[1] » . وهو فى هذه العبارة يضع مبادىء الحكم الأدبى ، و يبين أن العمدة فيه هو العالم الذى لا يتأثر بهوى ولا بعداوة وحسد .

وكذلك نقل ابن المقفع البلاغة نقلة واسعة المدى ، ووسع فى مدلولها .

عمرو بن عبيد

ت ١٤٤

ثانى اثنين — واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد — أسسا مذهب الاعتزال وجدا فى نشره . وهو كصاحبه ، متكلم خطيب صاحب جدل ومناظرة . وقد أورد الجاحظ فقراً من أقواله تدل على عقل منطق ، كقوله معزيا لأخيه فى وفاة ابنه : « ذهب أبوك وهو أصلك ، وذهب ابنك وهو فرعك ، فما حال الباقى بعد ذهاب أصله وفرعه ؟[2] » .

وسئل عن البلاغة ، فقال : ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك ؟ قال السائل ليس هذا أريد . قال عمرو : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت . قال السائل : ليس هذا أريد . قال

---

(١) البيان والتبين ، ج ١ ص ٩١ و ٩٢

(٢) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٧٢

عمرو : فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ فى حسن الافهام ؟ قال : نعم ! قال : إنك إذا أردت تقرير حجة الله فى عقول المتكلمين ، وتخفيف المؤونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب(١) .

وفى هذا القول يبدو عقل ابن عبيد الوعظى وهواه الدينى . فالبلاغة عنده هى مايؤدى بالانسان إلى الجنة وينجيه من النار ؛ وهو يصر على هذا المعنى ، رغم مراجعة السائل له من بداية الحديث إلى نهايته ، وإن كان يغير بعض الشىء فى تصويره . فيقول أولا : البلاغة هى مايقرب العبد من ربه ويبعده عن شيطانه . ثم يقول : إنها القول الناجم عن كثرة الاستفادة والسماع من الغير . ثم يقول : البلاغة هى النجاة من الهذر والاكثار ، ولهذا قيل : الأنبياء بكاء . ثم يقول : إن الشر فى الكلام والخير فى الصمت ، ثم يقول بعد أن لم يجد مناصا من الحديث فى صنعة الكلام : «إنها اللفظ الجميل فى المعنى الحسن » ، ويشرحها شرحا دينيا .

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٩٠

جعفر بن يحيى

ت ١٨٧

وصف ثمامة بن أشرس جعفر بن يحيى بجزالة المنطق وحلاوته، وسهولة الأداء ووضوح العبارة وطلاقة اللسان. وروى عنه قوله وقد سأله ما البيان: « أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلى عن مغزاك، وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة. والذى لابد منه أن يكون سليما من التكلف، بعيدا من الصنعة، بريئا من التعقيد، غنيا عن التأويل (١) ».

وكان جعفر من أنصار الإيجاز، بل لقد بالغ فيه حتى عرف بتوقيعاته الممعنة فى الإيجاز. وود لو يكون الكلام كله على غرارها، فقال: إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيعات فافعلوا (٢). لكنه كان يعرف أن لكل مقام مقالا، وأن للايجاز مواضع وللاطناب أخرى، فقال: « متى كان الايجاز أبلغ كان الإكثار عيا، ومتى كانت الكناية فى موضع الاكثار كان الايجاز تقصيرا (٣) ».

فكأن البلاغة عنده: وضوح الدلالة، والبعد عن التكلف والتعقيد، والمطابقة لمقتضى الحال.

---

(١) البيان والتبيين، جـ ١ ص ٨٥ و ٨٦

(٢) البيان والتبيين جـ١ ص٨٦ (٣) الصناعتين ص ١٨١

شبيب بن شيبة

ت نحو ١٧٠ هـ

وشبيب بن شيبة خطيب مجيد، وصفه الجاحظ بحلاوة الابتداء والرشاقة والسهولة فى الأداء، وبلوغه فى كل موقف بالإيجاز ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بالإكثار.

ومن آرائه أن جودة الخاتمة خير من جودة الابتداء، بل يرى حظ جودة القافية، وإن تكن كلمة واحدة، أرفع من حظ سائر البيت.

ويقول: « فان ابتليت بمقام لابد لك فيه من الاطالة، فقدم أحكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل قبل التقدم فى أحكام البلوغ فى شرف التجويد. وإياك أن تعدل بالسلامة شيئاً، فان قليلا كافياً خير من كثير غير شاف »[١]. فهو يرى البلاغة فى الايجاز، وأن القليل المفيد خير من الكثير، وأن الاضطرار الى الاطالة بلية يتعين فيها الحذر. كما أنه من أنصار السهولة وأعداء التكلف، إذ يدعو البليغ إلى العمل للسلامة من الخطأ فى مقام الاطناب، قبل العمل للتجويد.

---

(١) البيان والتبيين ﺟ ١ ص ٨٩ و ٩٠

سهل بن هرون

ت ١٧٣

وسهل بن هرون صاحب خزانة الحكمة للمأمون ، وكان حكيما فصيحاً شاعراً . وهو فارسى شديد العصبية على العرب ، عرف بالنقل من الفارسية. ومن مؤلفاته كتاب ديوان الرسائل (١) ، ولعله قد نقل فيه قواعد التحرير الفارسية إلى العربية .

وقد تحدث عنه الجاحظ ، ونقل له رسالة تدل - إن لم تكن من عمل الجاحظ نفسه - على أن أسلوب سهل وأسلوب الجاحظ متشابهان فى السهولة والإطناب .

وكانت كتبه من أعظم الكتب سيرورة فى عصره ، ولهذا كان الجاحظ ينحله بعض مؤلفاته لتسير . و بهذا أثر الجاحظ فى الأدب والكتابة ، وتأثر لا ريب بأسلوب سهل ، وكان لهما أثر كبير فى توجيه الأسلوب الأدبى.

ووصفه الجاحظ ، فقال : « ومن الخطباء الشعراء ، الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسير الحسان المولدة والأنباء المدونة ، سهل بن هرون (٢) » .

و إذ كان للبلاغة أنصار وأعداء فى ذلك العصر ، فسهل من أنصارها إذ

---

(١) الفهرست ، ص ١٧٤

(٢) البيان ، جـ١ ص ٥٥

يقول : « بلاغة الإنسان رفق والعي خرق »(١) .

وهو يرى أن أساس البلاغة حسن التصرف ، فيقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة »(٢) .

ومن آرائه : « أن اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان فى واحد ، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر و بلاغة القلم » .

ومن أقواله القيمة حقاً : « لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا جليلا بهيا ذا لباس نبيلا ، وذا حسب شريفا ، وكان الآخر قليلا قميئا و باذ الهيئة دميما ، وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلامهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفى وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع ، وعامتهم تقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم وللباذ الهيئة على ذى الهيئة ؛ ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه ، ولصار التعجب منه سبباً للعجب به ، ولكان الإكثار فى شأنه علة الإكثار فى مدحه لأن النفوس كانت له أحقر ومن بيانه أيأس ومن حسبه أبعد ؛ فاذا هجموا منه على مالم يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ما قدروه ، تضاعف حسن كلامه فى صدورهم وكبر فى عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان

---

(١) البيان ، جـ ٢ ص ٤٧

(٢) البيان ، جـ ١ ص ٣٢٢

أغرب كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أظرف ، وكلما كان أظرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ... »[١]

وفى هذا القول يبدو عقل سهل المنطقى المنظم وتفكيره الدقيق المتأنى الذى لا يقفز ، وإنما يسير فى انتظام ويصعد فى سلم متدانى الدرج . وهو شرح دقيق للحكم الأدبى ، يوضح أثر الحال النفسية للسامعين فى الحكم على الخطيب أو المتحدث . وقد كان ذلك غرساً حميداً فى ميدان البلاغة ، ولو أن من بعد سهل والجاحظ تعهدوه وأنموه لآتى أطيب الثمرات ، ولنجت البلاغة من شر الإمعان فى المنطق ، ولجنت خيراً كثيرا من اعتمادها على البحوث النفسية .

ومما هو جدير بالذكر أنه قد أفاد من قول ابن المقفع السابق ، كما أفاد منه فى تقسيمه القول إلى خطابة وحديث وجدل ووصف ، فأجمل بهذا ما فصله سابقه[٢] .

أبو عبيدة

ت ٢٠٨

عاش أبو عبيدة علامة البصرة نحو مائة عام ، من صدر القرن الثانى إلى صدر الثالث . وكان تيمياً قرشياً ولاء ، وأصله أعجمى يهودى . ولهذا لم يكن فصيحاً ، وقد انتهى إليه علم الإسلام والجاهلية[٣] . وكان يرى رأى الخوارج ،

---

(١) و (٢) البيان والتبيين ، جـ١ ص ١٧١ (٣) الفهرست ، ص ٨٩

ولم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه[١]. وله كتب تزيد على المائتين ، منها كتاب النقائض بين جرير والفرزدق ، وكتاب مجاز القرآن ، وكتاب تفسير غريب القرآن ، وكتاب معانى القرآن ، وكتاب غريب الحديث ، وكتاب الأمثال ، وكتاب إعراب القرآن .

ومن آرائه أن التكسب بالشعر أساس التكلف والصنعة ، فيقول : « ومن تكسب بالشعر والتمس به صلات الأشراف والقادة ، وجوائز الملوك والسادة فى قصائد السماطين والطوال التى لم تنشد يوم الحفل ، لم يجد بدا من صنيع زهير والحطيئة وأشباههما . وإذا قالوا فى غير ذلك أخذوا عفو الكلام وتركوا المجهود »[٢] . وقد نقل له الجاحظ كلاما فى الفصاحة وعيوب النطق[٣] وشعرا فى الخطيب البليغ[٤] .

مجاز القرآن

وكتابه مجاز القرآن موضع حديث قديم فى تاريخ البلاغة ، ويقول أبو عبيدة إن السبب فى تأليفه هو ما كان من استقدام الفضل بن الربيع له ، وسؤاله فى مجلسه عن وقوع الايعاد بما لم يعرف مثله فى قول الله تعالى : (طَلْعُهَا كأنهُ رؤوس الشياطين) . فقال أبو عبيدة : « فقلت إنما كلم الله

---

(١) البيان والتبيين ، جـ ١ ص ٢٢٤ (٢) البيان ، جـ ١ ص ٢٦
(٣) البيان ، جـ ١ ص ٧٤ (٤) البيان ، جـ ١ ص ١٥٥

تعالى العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرىء القيس :

أتقتلنى والمشرفى مُضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به.
فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، واعتقدت من ذلك اليوم أن أضع كتابا فى القرآن فى هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه ، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته المجاز[١] » .

وهكذا نرى أن سبب تأليفه يرجع الى مسألة بلاغية تتصل بالتشبيه وكون المشبه به معلوما أو مجهولا ، وأنه أورد فيه أشباه هذا (وما يحتاج اليه من علمه) .

ويقول التوزى : « بلغ أبا عبيدة أن الأصمعى يعيب عليه تأليف كتاب المجاز فى القرآن ، وأنه قال يفسر ذلك برأيه . قال فسأل عن مجلس الأصمعى فى أى يوم هو ، فركب حماره فى ذلك ومر بحلقه الأصمعى ، فنزل عن حماره وسلم عليه وجلس عنده وحادثه ، ثم قال : يا أبا سعيد ، ما تقول فى الخبز ؟ قال : هو الذى تخبزه وتأكله ! فقال أبو عبيدة : فسرت كتاب الله برأيك . قال الله تعالى « إنى أرانى أحمِلُ فوقَ رَأْسِى خُبْزاً » ! فقال له الأصمعى : هذا شىء بان لى فقلته ولم أفسره برأيى . فقال له أبو عبيدة : وهذا الذى تعيبه علينا كله شىء بان لنا فقلناه ، ولم

---

(١) نزهة الألبا ، ص ١٤٢ – ١٤٣

نفسره برأينا ! ثم قام فركب حماره وانصرف (١) .

ومن هذه القصة يبدو أن أبا عبيدة قد أحدث جديداً بتأليف هذا الكتاب ، وأنه كان مثاراً للاعتراض عليه من علماء عصره الذين لا يدينون بمذهب الرأى ، وأن أباعبيدة قداعتز بآرائه، ورآها ظاهرة ظهور معنى الخبز . وقد تدل كذلك على أن ما أثاره الأصمعى ، من الاعتراض على الكتاب وماجاء فيه ، كان له من الأثر ما اقتضى أن يركب أبوعبيدة ، وأن يذهب ليحاجّ نظيره الأصمعى فيه ويدفعه على ملأ من الناس .

وقد عد ابن النديم من مؤلفاته كتاب المجاز وكتاب تفسير غريب القرآن . وأغلب الظن أن الكتاب الثانى هو المخطوط بدار الكتب المصرية ، إذ كتب بظاهر النسخة «تفسير غريب القرآن» ، وان كانت كلمة المجاز قد دارت فى الكتاب كما سيأتى .

ويرى الأستاذ أمين الخولى رأى ابن تيمية فى أن المجاز عند أبى عبيدة لا يعنى مقابل الحقيقة ، وإنما يعنى ما يعبر به عن الآية ، فهو يعنى التفسير .

والحق أن أبا عبيدة استعمل كلمة المجاز بمعنى التأويل أو التفسير ، إذ يفتتح الكتاب بقوله : « القرآن اسم كتاب الله خاصة ، ولا يسمى به شىء من سائر الكتب غيره . وإنما يسمى قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها .

وتفسير ذلك فى آية من القرآن. قال الله جل ثناؤه : إن علينا جمعه وقرآنه، مجازه تأليف بعضه إلى بعض ، ثم قال : « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » مجازه فاذا ألفنا منه شيئاً فضمه إليك . . . . وقال عمرو بن كلثوم :

ذراعى حرة أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

أى لم تضم جنينا فى رحمها قط. ويقال للتى لم تحمل قط : ما قرأت جنيناً قط . وفى آية أخرى « فاذا قرأت القرآن » مجازه إذا تلوت بعضه فى أثر بعض حتى يجتمع وينضم بعضه الى بعض . ومعناه يصير إلى معنى التأليف » .

ولكن يلاحظ أنه يبدأ كل عبارة بقوله : وفى مجاز كذا قال الله ، ويضيف الى كلمة المجاز أمراً فيه صرف اللفظ عن استعماله العام إلى غيره . فيقول مثلا : «وفى مجاز ما جاء من بعض خبر الحيوان والموات على بعض خبر الناس قال : « إنى رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهُمْ لى ساجدين » . وقال : « أتينا طائعين » . وقال للأصنام : « لقد علِمْتَ ما هؤلاء ينطِقونَ » . فهو هنا يشرح خروج ضمير العاقل عن وضعه الأصلى واستعماله لغير العاقل . ويقول : « وفى مجاز ما جاءت مخاطبة الشاهد ، ثم ترك وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ، قال الله تعالى : «حتى إذا كُنتُمْ فى الفلك وجرَين بهم » أى بكم ، فيذكر قاعدة بلاغية معروفة، وهى الالتفات من الغائب إلى الحاضر والعكس. ويعرض كذلك للاطناب بزيادة الحروف للتأكيد فيقول : « وفى مجاز ما يزاد فى الكلم من الحروف الزوائد ، قال الله تعالى : « إنَّ اللهَ لا يَستَحى أن

يَضْربَ مَثَلاً مابعوضَةً فما فوقها» ، وقال : «فمانكم من أحد عنه عاجزين»، وقال: « وشَجَرةً تَخرُجُ من طُور سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بالدهن وصبغٍ للآكلين»، وقال « و إذ قال ربك للملائكة »، وقال « ما منَعَكَ ألا تَسجُدَ ». فهوهنا يشير إلى زيادة « ما » و « من » والباء و « إذ » و « لا » . وقد وردت فى هذا الموضع كلمة التوكيد ، مع بياض قبلها مكان كلام محذوف، ممايدل على ذكره لمعنى الزيادة ، وتكلم عن مجاز التكرار للتأكيد ، والاجمال استغناء عن التفصيل ، والتقديم والتأخير . واستعمل الكناية استعمال اللغويين والنحاة بمعنى الضمير ، فقال « وفى مجاز ما يحول خبره إلى شىء فى سببه و يترك خبره، قال: « فظلت أعناقهم لها خاضعين» أى فظلوا هم خاضعين. حول الخبر إلى الكناية التى فى آخر الأعناق » .

فأبوعبيدة يقول: « وفى مجاز كذا » ، ثم يورد استعمالات متجوزا فيها. وهو حقا قد سار على ترتيب السور، فبدأ بالفاتحة فالبقرة فآل عمران وهكذا، ولكنه لم يستقص السورة كلها ، و إنما أورد الاستعمالات الغريبة فيها ، أى أورد غريب القرآن ، أومجاز القرآن بمعنى الأشياء الغريبة التى خرجت عن مألوف الاستعمال .

و إذا ضممنا إلى هذا أن أبا عبيدة ألف كتابه مجاز القرآن بعد مسألة التشبيه التى رويناها، وأن عالماً كالأصمعى اعتبره بدعا — لم نبعد إذا قلنا إن المجاز عند أبى عبيدة لوحظ فيه مطلق النقل من الوضع الأصلى أو المعروف ، وأن هذا المعنى خصص من بعد حتى صار المقابل للحقيقة

عند الجاحظ كما سيأتى . ولعل كتاب المجاز — إذا اعتبرنا السابق كتاب تفسير غريب القرآن — كان يعطى فكرة أوضح .

النقائض

ولأبى عبيدة كتاب آخر يدل على سعة اطلاعه ، وعظيم إلمامه بتاريخ العرب وأيامهم ، وثقافته اللغوية الشاملة ؛ ذلك هو كتاب النقائض بين جرير والفرزدق . وهو كتاب لغوى تاريخى ، ولكن الباحث يجد فيه ما يتصل بالبلاغة .

استعمل مادة الاستعارة حين قال تعليقاً على قول الفرزدق لجرير :

لاقومَ أكرمُ من تميمٍ اذ غدتْ   عُوذُ النساء يُسقْنَ كالآجال[1]

قوله عوذ النساء هن اللاتى معهن أولادهن ، والأصل فى عوذ الابل التى معها أولادها فنقله العرب الى النساء . وهذا من المستعار ، وقد تفعل العرب ذلك كثيراً[2] .

وأتى المثل عنده بمعنى المجاز أو الاستعارة كقوله :

فلم تدر يا هُلب استها كيف تتقى   شموساً أبت الالقاحَ عقيمها

والشموس المنوع من الخيل ، وهو مثل . يقول أبت عقيمها إلا أن تلقح . و إذا لقحت الحرب ، كان أشد لأمرها وأعظم)[2] . وفى قوله بعد قول جرير :

إنى إذا بسط الرماة لغلوهم   عند الحفاظ غلوت كل مغال

(وقوله «غلوت» هو من غالانى فغلوته . يقول نظرنا أينا أبعد غلوة سهم ، وإنما هذا مثل للتفاخر وذكر الأيام والنعم والأيادى)[3] .

---

(١) ج١ ص ٢٧٥   (٢) ج١ ص ١٢١

(٣) ج١ ص ٢٩٥

وقد يسميه كذلك ضرب المثل .

على أن المثل عنده يأتى كذلك بمعنى القول السائر . ولكن النزعة اللغوية قد تغلب عليه ، فيخرج الاستعارة تخريجاً لغويا ، ويعبر عنها بالتسمية [١] . وتظهر هذه النزعة كذلك فى كتابه تفسير غريب القرآن ؛ إذ يفسر ما سمى بعد بالمجاز العقلى تفسيرا لغويا .

ووردت كلمة التشبيه فى مواضع عدة ، كقوله تعليقاً على بيت جرير :

تُجْرِى السواكَ على أغرَّ كأنه   بَرَدٌ تَحَدَّرَ من مُتُونِ غمام

« أغر : ثغر ، لبياضه شبه ثغرها ببرد تحدر من غمامة » .

و إذاً فأبو عبيدة قد عرف التشبيه والمثل والاستعارة . ولعل النصوص الماضية كافية لفهم معانيها عنده .

* * *

وأبو عبيدة أحد ثلاثة من علماء البصرة : أبو زيد ، والأصمعى ، وأبو عبيدة عرفوا بفقه اللغة وتمام الإلمام بشعر العرب وأيامهم وأخبارهم . وقد نسب لأبى زيد فوق كتبه اللغوية والأخبارية كتاب المنطق [٣] . ونسب للأصمعى كتاب الأمثال وكتاب معانى القرآن [٢] . وأورد له الجاحظ كلاما فى موانع

---

(١) ج١ ص ٢٧٧
(٢) الفهرست ص ٧١
(٣) الفهرست ص ٨٢

الفصاحة وعيوب اللسان (١) ، وقوله « البليغ من طبق المفصل وأغناك عن المفسر » (٢). أى إن البليغ هو من يضع اللفظ على قدر المعنى ، و يبين عما عنده فى وضوح وجلاء . و يظهر أنه كان من أعداء الصنعة والتجويد ، فقد عاب الحطيئة وسماه عبداً لشعره (٣) . وكان أبو هلال فى كتاب الصناعتين يحتج بقوله فى مواضع عدة ، كقوله فى صدر كلامه عن التجنيس : « أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها فى تأليف حروفها على حسب ما ألف الأصمعى كتاب الأجناس » (٤).

بشر بن المعتمر

ت ٢١٠

و بشر بن المعتمر شيخ معتزلة بغداد ، ومن أصحاب الرأى ، وقد عرف بالشعر التعليمى (٥) .وكانت له أقوال فى البلاغة يفخر بها على غيره . فيروى أنه مر بإبراهيم بن جبلة وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فاستمع لكلامه، ثم اتجه إلى الفتيان وقال : « اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا» . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره تتلخص فيما يأتى :

---

(١) البيان والتبيين ، جـ ١ ص ٤٦ (٢) البيان والتبيين ، جـ ١ ص ٨٦.
(٣) البيان والتبيين ، جـ١ص ١٥٠ (٤) الصناعتين ، ص ٣٠٨
(٥) البيان والتبيين ، جـ١ ص ١٤٤

١ — تخير للإنتاج الأدبى ساعة النشاط وفراغ البال وإجابة النفس ، فقليل هذه الساعة أكرم من جهد يوم طويل . وإن قصدت إلى الكتابة ولم تواتك القريحة ، فلا تتكلف ولا تكره الألفاظ على مواضعها ، بل دع الكتابة بعض الوقت ، ثم عاودها فستواتيك إن كنت موهوباً .

٢ — كن رشيق اللفظ قريب المعنى ، وتجنب التوعر ، فهو يسلم إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك المعانى ويشين الألفاظ .

٣ — تحر مطابقة الكلام للحال . وافصل بين خطاب العامة وخطاب الخاصة ، واعلم أن لا فرق بين معانيهما شرفا وضعة . والبليغ التام هو من يفهم العامة معانى الخاصة (١) .

والقسم الأول من هذا الكلام مسائل عامة لا يتصل بالبلاغة منها إلا مجانبة التكلف . والقسمان الآخران فيهما من المسائل البلاغية اجتناب التعقيد ومراعاة مقتضى الحال ، فلهما لهذا ذكر فى تاريخ البلاغة . ولكنى لا أستطيع أن أذهب مذهب الأستاذ أحمد أمين ، إذ قال تعقيباً على هذه الصحيفة : « وهذه كما ترى أسس البلاغة ، وقد كتبها قبل أن يؤلف الجاحظ كتابه البيان والتبيين ؛ لأن الجاحظ نقلها عنه ، ولأن بشراً نضج قبل نضوج الجاحظ ومات قبله بنحو خمس وأربعين سنة ،

---

(١) البيان والتبيين ، جـ ١ ص ١٠٤ و ١٠٥

فان بشراً مات نحو سنة ٢١٠ ، ومات الجاحظ نحو سنة ٢٥٥ ، ولا نعلم قبل بشر من تعرض لوضع هذه الأسس فى اللغة العربية ، فلو أسميناه مؤسس علم البلاغة لم نبعد » [1] .

فلكى نحكم بجدة قول بشر فى تاريخ البلاغة ، يجب أن نعلم أولا قول إبراهيم بن جبلة الذى اعترض عليه بشر ، فربما كان أدخل فى البحث البلاغى منه ، ويجب أن نعلم كذلك ما كان يقوله غير ابراهيم من المعلمين لتلاميذهم ، وتوجيهات عبد الحميد الكاتب ، وسهل بن هرون وكتابيه : معانى القرآن والخطب فى التوحيد والعدل ، وغيرهما من الكتب التى لم تصلنا . فتاريخ البلاغة ملىء بالمجهولات ، والقول بأن فلانا مؤسس البلاغة لا يقوى أى باحث على تحمل عبئه .

على أنى لست بحاجة إلى الإحالة على مجهول ، فقد رأينا الدعوة إلى مجانبة التكلف والتعقيد ، وإلى مراعاة مقتضى الحال فى كلام النبى والصحابة والتابعين ، ورأينا أن ابن المقفع قد قال ماهو أدخل فى البحث البلاغى من هذا ، وقيل عنه إن أحداً لم يفسر البلاغة تفسيره إياها ، وإنه قد وجه الكتابة العربية توجيها جديداً ، وابن المقفع توفى سنة ١٤٢ ﻫ . وهذا أبو عبيدة قد عاصر بشراً وعاش نحو مائة سنة وتوفى قبله بعامين ، وألف فى مجاز القرآن وتحدث فى التشبيه والاستعارة . وبشر توفى والجاحظ

---

(١) ضحى الاسلام ، ج ٣ ص ١٤٢

فى الستين من عمره ، فالقول بأن الجاحظ لم ينضج وقت هذا القول ليس له مايثبته ، وبخاصة أن هذا القول جاء فى كتاب البيان والتبيين وهو من آخر مؤلفات الجاحظ .

كلثوم العتابى

ت ٢٢٠

وكلثوم بن عمرو العتابى من أولاد عمرو بن كلثوم الشاعر ، وأصله شآمى من قنسرين . صحب البرامكة ، وكان شاعراً كاتبا حسن الترسل [١] . وهو فى الشعراء العباسيين كالنابغة فى الجاهليين ، ثم هو أديب مصنف ، ومن كتبه « كتاب المنطق ، وكتاب الآداب ، وكتاب الألفاظ » [٢] .

ووصفه الجاحظ فقال: « ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن ، كلثوم بن عمرو العتابى ، وكنيته أبو عمرو . وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين ، كمنصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما . وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة [٣] »

---

(١) الفهرست ، ص ١٧٥

(٢) معجم الأدباء ، حـ ٦ ص ٢١٣-ص ٢١٢ (٣) البيان ، حـ ١ ص ٥٩

وكان البديع ، كاسيأتى ، اسما عاما فى ذلك العصر تندرج تحته ألوان البيان من تشبيه واستعارة وغيرهما . ومن هذا النص يظهر أنه كان صاحب مذهب بلاغى تأثر فيه ببشار ، ولكنه انفرد بخصوصيات تكلف بعض الشعراء تقليدها وسار على نمطها من بعده .

وسئل العتابى عن البلاغة ، فقال : « كل من أفهمك حاجتك من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ . فاذا أردت اللسان الذى يروق كل خطيب ، فاظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل بصورة الحق » .

والشطر الأول من كلامه يدل على أن البليغ عنده هو من يصور المعنى تصويراً كاملا واضحاً ، فلا يحتاج إلى استعانة باعادة أو إشارة أو نحوهما ، ولا يعتريه ضعف فى الأداء . أما الشطر الثانى ففيه دلالة على عقل العتابى صاحب المنطق الذى يريد إظهار ماغمض من الحق ، وصاحب الجدل الذى يريد تصوير الباطل حقا .

وعلق الجاحظ عليه ، فقال : إنه لم يقصد بقوله إن كل من أفهمك حاجتك فهو بليغ ، أن الكلام الملحون والمعدول عن جهته والركيك بليغ ، وإنما عنى العتابى « إفهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء[1] » .

ويربط العتابى بين الألفاظ والمعانى ربطاً وثيقاً ، فيقول إن نظمها يحتاج إلى مهارة وموهبة ، وإن تحويلها عن مواضعها يفسدها ويحيلها ، وإن معرفة

---

(١) البيان ، ج١ ص ١٤٦

ما ينبغى تقديمه وما ينبغى تأخيره أمر يتصل بالخبرة . وقد أعجب أبو هلال العسكرى بهذا القول وامتدحه (١) .

فكان يرى أن اختيار الألفاظ ووضعها فى مواضعها أمر صعب يحتاج إلى كثير من المهارة والحذق . ويقول : «ما رأينا فيما تصرفنا فيه من فنون العلم وجرينا فيه من صنوف الآداب شيئاً أصعب مراما ، ولا أوعر مسلكا ولا أدل على فضل الرجال ورجاحتهم وأصالة الرأى وحسن التمييز منه ، واختباره من الصناعة التى خطبتها ، والمعنى الذى طلبته . وليس شىء أصعب من اختيار الألفاظ ، وقصدك بها إلى موضعها ، لأن اللفظة تكون أخت اللفظة وقسيمتها فى الفصاحة والحسن ، ولا تحسن فى مكان غيرها (٢) » .

وباضافة هذا النص إلى ماسبق ، يتبين مقدار عنايته بالألفاظ واختيارها ، وأنه فى هذا يتحدث عن تجاربه كاتبا يرى دقة الملاءمة بين اللفظ والمعنى ووجوب العناية بهما معا .

ويدل هذا النص كذلك على أنه من المجودين الذين يراجعون كثيراً مايكتبون . ويؤيده ، ويقرر رأيه فى العناية باللفظ والمعنى معا ، ماروى من أن صديقاً له طلب إليه كتابة رسالة فى أمر ، فكان العتابى يطلب إليه التأجيل مرة بعد أخرى . فقال له : ما أرى بلاغتك إلا شاردة ، فقال العتابى : لما تناولت القلم تداعت على المعانى من كل جهة ، فأحببت أن أترك

---

(١) الصناعتين ، ص ١٥٤ (٢) الرسالة العذراء ، ط دار الكتب ، ص ٣١

كل معنى يرجع إلى موضعه ، ثم أجتنى لك أحسنها [١] .

ويروى طيفور أنه كان يحسن الفارسية ويكتب كتبها ، فسئل عن ذلك فقال : « وهل المعانى إلا فى كتب العجم والبلاغة ؟! اللغة لنا والمعانى لهم [٢] » .

فالعتابى إذاً قد عرف الفارسية وتثقف بمعارفها ، وعلم أن فيها من المعانى والبلاغة مايزيد فى ثروة العربية ويغنيها ، فأفاد منها .

* * *

هذا هو التفكير البلاغى قبل الجاحظ ولعصره عند الذين نقل عنهم فى كتبه . ولاجرم أن الباحث يعجز عن تمام الإلمام بهذا التفكير ، إذ لم يصل إلينا من مؤلفات ذلك العصر شىء مذكور ، وكتب الفهارس تذخر بأسماء مؤلفات فى القرنين الأول والثانى وبداية الثالث لا نعرف عنها شيئا ، وإن كانت أسماؤها تشعر بصلتها بالبلاغة .

---

(١) الرسالة العذراء ، ص ٣٦

(٢) تاريخ بغداد ، ج ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨

الباب الثالث

البلاغة عند الجاحظ

الفصل الأول

البلاغة : معناها ، تعريفها ، مسائلها

١ – معنى البلاغة

إذا تأملنا النصوص التى وردت فيها كلمة البلاغة أو مشتقاتها ، فى كتب الجاحظ التى بين أيدينا ، وجدنا لها معانى نوردها فيما يأتى :

١ – الخطابة :

أتت البلاغة فى كثير من النصوص ، ملحوظا فيها معنى الخطابة أو الحديث ، كما أتت الخطابة بمعنى البلاغة . فترى الجاحظ يتحدث عن المعانى ، وكيف تجمل إذا أعارها البليغ مخرجا سهلا ونطقا جميلا[١] .

وحين يورد أسماء الخطباء وصفاتهم وأنباءهم ، يذكر فى أثناء إيراده أن سهل بن هرون كان شديد الاطناب فى وصف المأمون بالبلاغة ، ومقومات البراعة فيها : من الجهارة والحلاوة والفخامة وجودة اللهجة والطلاوة . ثم يتبع هذا بذكر أسماء الخطباء من بنى هاشم ، و بلغاء رجال القبائل ، وخطباء الجاهليين والاسلاميين والبدويين والحضريين ؛ فيتحدث عن الاشارة

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٧٦

والحركة فى الخطبة[١]، كما يذكر أن أهل البلاغة لامناص لهم من الاستعانة بالاشارة باليد والرأس[٢].

فواضح من هذا كله أن الجاحظ حين يورد هذه الملابسات الخطابية من الاشارة والحركة والصوت واللهجة، وحين يأتى بكلمة البلاغة مصحوبة بهذه الملابسات، يلحظ فيها معنى الخطابة. وتراه كثيرا ما يضع لفظى البلاغة والخطابة فى جملة واحـدة مترادفين، كأن يتحدث عن موقف الجمهور فى المفاضـلة بين خطيبين، فيقول إنه « إذا كان الخليفة بليغاً والسيد خطيباً » كان الناقد لقولها فى الأكثر أحـد رجلين : رجل يعطى كلامهما من التعظيم على قدر ما لهما فى نفسه من الحب، ورجـل يتهم نفسه فيسرف فى اتهام من يعظمه خشية أن يكون مخدوعا عنه . ولكن الناقد العدل هو القوى الذى لايتأثر بهوى نفسه ولا برأى غيره، فيضـع كلمة البليغ مرادفة لكلمة الخطيب فى معرض الحديث عن حـكم الجمهور بين خطيبين[٣].

وكقوله : « وما تكلمت فيه الخطباء ونطقت به البلغاء أكثر من أن يبلغ آخرها ويدرك أولها »، فيضع النطق مرادفا للتـكلم والبلغاء مرادفا للخطباء[٤]، والأمثلة على هذا عديدة[٥].

---

(١) البيان والتبيين، جـ١ص٧٧ (٢) كتاب الحيوان، جـ١ ص٣
(٣) البيان والتبيين، جـ١ ص٧٦ (٤) هامش الـكامل، جـ٢ص٢٣١
(٥) البيان، جـ١ ص ٢٠٢-٢٣٠

وأسلوب الجاحظ بما فيه من إطناب و بسط يؤدى إلى استعمال كثير من المترادفات ، إما بإيرادها مفصلة متناظرة و إما بالعطف . ولهذا يعطف الخطابة على البلاغة والبلاغة على الخطابة عطف تفسير(١)، ويعقد بابا بعنوان : «باب أسماء الخطباء والبلغاء والأبيناء وذكر قبائلهم وأنسابهم»(٢). وفي هذا الباب يورد أسماء الخطباء من القبائل المختلفة والمذاهب المتنوعة ، مصدرا الأعلام بقوله : ومن خطباء كذا فلان وفلان ... كما يورد ما يؤدى إليه الاستطراد من أنباء تتصل بالقبائل والنحل وخطبائها . وهذا يبين أن لفظ البلغاء أتى مرادفا للفظ الخطباء في هذا الباب الذى يقوم على ذكر الخطابة .

ويذكر احتجاج المعترض على أصحاب البلاغة والخطابة بأشعار تمدح الصمت وتهجن الكلام ، ورد « صاحب البلاغة والخطابة وأهل البيان وحب التبيين » عليه بأن النبى صلى الله عليه وسلم انما عاب الخطيب المتخلل بلسانه المتكلف للقول ، (الذى يصنع بفكيه وشدقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر) .

كما تجد عند الجاحظ نصوصا تجمع بين البلاغة والخطابة جمعا فيه تعقيب بأحد اللفظين على الآخر ، كأن يقول : «قال أشيم بن شفيق بن ثور لعبيد الله بن ظبيان : ما أنت قائل لربك ، وقد حملت رأس مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان؟ قال : اسكت ! فأنت يوم القيامة أخطب

(١) البيان ، جـ١ ص٨٢ و ١٤٧ (٢) البيان، جـ١ ص ٢٠٢ — ٢٣٠

من صعصعة بن صوحان إذا تكلمت الخوارج . . . » ثم علق الجاحظ على هذا بقوله : « فما ظنك ببلاغة رجل — يعنى صعصعة — عبيد الله ابن زياد يضرب به المثل ! »[1]. فهوهنا قد وضع البلاغة موضع الخطابة ، إذ العبارة أخطب من صعصعة ، لا أبلغ من صعصعة .

وكقوله : إن معاوية سأل صحار بن عياش العبدى : ما هذه البلاغة التى فيكم ؟ فقال أحد الحاضرين : هم بالبسر ، والرطب أبصر منهم بالخطب ! فالسائل يسأل عن البلاغة ، والمجيب ينفى عنهم الخطابة . . .

ومما يزيد هذا المعنى وضوحاً : أن الكلمة أتت مقابلة للعى فى قول الشاعر :

جمعت صنوف العى من كل وجهة
وكنت حريا بالبلاغة من كثب

ويتبين من البيت الذى بعد هذا : أن المقصود بمقابل العى (أى البلاغة) هو الخطابة ، إذ يقول :

أبوكَ معمٌّ فى الكلام ومخولٌ   وخالك وثاب الجرائيم فى الخطب

فيتحدث عن الكلام والتمكن منه والخطب والبراعة فيها[2] .

ونحو هذا قوله عن الإنسان : إنه سمى العالم الصغير ، إذ كان

---

(١) البيان ، جـ١ ص ٢١٣   (٢) البيان ، جـ١ ص ٤٢

فيه جميع طبائع العالم الكبير ، ثم يقول : ألا ترى أن فى الإنسان طبائع الغضب ، والرضا ، والشك ، واليقين ، والعى ، والبلاغة ، وغيرها (١) .

وقوله : « بل ربما لم يرض باللفظ السليم حتى يسقمه ، ليقع العجز موقع القوة ، ويعرض العى فى محل البلاغة » (٢) .

وقوله : « ويكون فى وسعه وصل لأن يحط نفسه فى طبقة الذل ، وهو عزيز ؛ ومحل العى ، وهو بليغ » (٣) . فهذا الاستعمال يؤيد الرأى فى المعنى السابق . ويتصل بهذا إضافة كلمة البلاغة إلى المنطق واللسان ، ووصفها ، كقوله : « وذكر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حال قريش فى بلاغة المنطق . . . وذكر العرب وما فيها . . . من بلاغة الألسنة »(٤).

وقوله ، بصدد الحديث عن الخطابة والشعر ومن يجمع بينهما :

« وكان سهل بن هرون يقول : اللسان البليغ ، والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان فى واحد(٥) » ، فالبلاغة هنا قد جعلت مقابلة للشعر ، مقصودا بها الخطاب ، أو الكلام المنثور .

وقوله ، عند التحدث عن المعانى التى تجمل روايتها : « المعانى التى

---

(١) الحيوان ، جـ١ ص ١٠٠ (٢) هامش الكامل ، جـ٢ ص ٢٠٥
(٣) هامش الكامل ، جـ٢ ص ٢٠٦ (٤) البيان ، جـ١ ص ٢٦
(٥) البيان ، جـ ١ ص ١٧١

إذا صارت فى الصدور . . . فتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ (١) » ، فجعل البلاغة متصلة باللسان ، مغايرة للكتابة .

ووصف بهذا المنطق فى قوله : « الأعجم من أجناس الحيوان يبلغ فى تدبير معيشته . . . . مالا يبلغه ذو الروية التامة والمنطق البليغ (٢) » . وأضيف إليها فى قوله : « ووجه العرب قواهم إلى قول الشعر ، وبلاغة المنطق (٣) » .

٢ — على أنها تتصل بالشعر كذلك كما يبدو هذا فى قوله : « وسنذكر بعض ما جاء فى تفضيل الشعر ، والخوف منه ، ومن اللسان البليغ (٤) » ، ثم فى قصره القول على الهجاء المقذع ، وبيان كيف أسقط قبائل ، ورفع غيرها ، ولم يعرض للخطابة بذكر .

٣ — ولوحظ فى الخطابة معنى النثر فى قوله : « ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ فى الأرض وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر وصاحب كلام موزون (٥) » ، فالبليغ هنا

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ٢٢٥

(٢) الحيوان ، جـ ٧ ص ٢٢ (٣) هامش الكامل ، جـ ١ ص ٢٦٥

(٤) البيان ، جـ ٣ ص ٢٣١ (٥) الحيوان ، جـ ٣ ص ١٦٣

هو صاحب كلام المنثور ، والشاعر هو صاحب الكلام الموزون ، والبلاغة موضوعها النثر .

ونحو هذا قوله : « وذلك قوله لقريش خاصة ، وللعرب عامة ، مع مافيها من الشعراء ، والعظماء ، والبلغاء ، والدهاة ، والحكماء »(١) . فيظهر أن البلغاء هنا مغايرون للشعراء ، بل للخطباء ، كما يدل اختلاف المعطوفات .

وقوله : « وإنه — الرسول — تحدى البلغاء ، والشعراء ، والخطباء بنظمه » . فى هذه الأمثلة نرى أن البلغاء بمعنى الناثرين ، وأنهم يوضعون مقابلين للشعراء .

٤ — واتصلت كذلك بالكتابة وبالقلم ، كقوله فى صدر رسالته فى مدح التجارة ، وذم عمل السلطان : « أستحيي من الكتابة وأستنكف بأن أنسب إليها من البلاغة »(٢) ، فجعل البلاغة من الأوصاف التى تتصل بالكتابة . وقول بشر بن المعتمر : « فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك . . . »(٣) . فالبلاغة هنا : قد أسندت إلى القلم.

وقول سهل بن هرون : « اللسان البليغ والشعر الجيد : لا يكادان يجتمعان فى واحد . وأعسر من ذلك . أن تجتمع بلاغة الشعر ، وبلاغة القلم(٤) » .

---

(١) هامش الكامل ، جـ٢ ص١٠٢ (٢) هامش الكامل ، جـ٢ ص٢٤٧
(٣) البيان ، جـ١ ص ١٠٥ (٤) البيان ، جـ١ ص ١٧١

وهكذا نرى للشعر بلاغة ، وللقلم بلاغة ، كما رأينا للسان بلاغة ، وللمنطق بلاغة .

وأتت البلاغة اسما شاملا لفنون القول المختلفة فى قوله : «ونحن — أبقاك الله — إذا أدعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والمسجوع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج ... »

فجعل للبلاغة أصنافا من النثر ، والشعر ، والسجع ، والمنثور ، والمزدوج ، والمطلق .

وقوله ، فى معرض الحديث عن المسلمين : (فكم تظن أنا وجدنا منهم من الرواة والقضاة ... ومن كبار الكتاب ، والشعراء ، والوزراء والأدباء ، ومن أصحاب الرسائل والخطابة ، والمذكورين بجميع أصناف البلاغة [١] . فالبلاغة أنواع شعر وكتابة ورسالة وخطابة وغيرها .

وقد تأثر الجاحظ بابن المقفع ، وسهل بن هرون فى تقسيم الكلام كما مر . ويقول لأحمد بن عبد الوهاب فى رسالة التربيع والتدوير : إن خطبائك قد جمعوا البلاغة . فهى اذاً شىء ذو أجزاء تجمع ويحاط بها [٢] . ويتحدث عن دهر محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فيذكر أن الخطابة شاعت فيه ، فكثر الشعراء والخطباء . وناظمو ضروب الكلام [٣] .

---

(١) هامش الكامل ، جـ١ ص ٢١ (٢) هامش الكامل ، جـ١ ص ٤٧-٤٨

(٣) هامش الكامل ، جـ ٢ ص ١١٤

ويصف عبد الله بن المقفع بأنه بليغ متأدب ، مقدم فى بلاغة اللسان والقلم [١] .

ووصف بها الكلام واللفظ والانسان ، فيقول : إن الكلام لا يكون بليغا إلا إذا سابق معناه لفظه ، ولفظه معناه [٢] ؛ وإن اللفظ البليغ يقرر المعنى الشريف تقريراً يبلغ القلب ، ويتمكن من نفس السامع [٣] .
ويقول كذلك : إن الواصف البليغ يجسم المعنى ، ويصور الغائب حاضرا .

وإذا أردنا ترتيب هذه المعانى حسب التطور الطبيعى ، رجحنا أن البلاغة أولا كانت تستعمل ملحوظا فيها معنى الخطابة ، أو الحديث .

ويؤيد هذا : أن الجاهليين كانوا يقولون : هذا أشعر من ذاك أوهذا أشعر الناس فى مقام الحديث عن الشعراء ، ولم يرد عنهم القول بأن هذا أبلغ من ذاك ، أو هذا أبلغ الناس فى مقام الشعر .

ثم توسع فى معناها حتى شمل فنون القول المختلفة من شعر ونثر وقصيد ورجز ، ثم عم حتى شمل الكتابة الفنية .

* * *

---

(١) هامش الكامل ، ج ١ ص ٣٢

(٢) و (٣) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٧٣

ومما يجدر ذكره : أن كلمة البلاغة فى الغرب قد استعملت أولا بمعنى فن الخطابة وحده ، بل إن بعضهم ليعرف البلاغة الآن بفن الملاءمة بين الخطاب و بين الموضوع ، والحال حسب حاجة السامع أو القارىء .

ويطلقون كلمة الخطاب اصطلاحيا على مايشمل الرسالة والموضوع المكتوب ، ويقولون إن البلاغة بدأت أولا كفن للخطاب ، ولكن تقدم الكتابة والطباعة جعل ميدانها أفسح ، و إن ظل تعريفها يلمح إلى ذلك المعنى الأول (١) .

---

(١) Genung: The Working Principles of Rhetoric: 3rd ed. P. 3.

ب - تعريفها

ذكر الجاحظ، فى كتاب البيان والتبيين، عدة تعريفات للبلاغة، بعضها منسوب الى العرب، وبعضها منسوب إلى غيرهم، وسنوردها جميعاً، لأنها - أغلب الأمر - كان لها أثر فى تاريخ البلاغة العربية:

١ - سأل معاوية بن أبى سفيان صحاراً العبدى: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الايجاز. قال له معاوية: وما الايجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطىء. وأن تقول فلا تخطىء.

وقال المفضل الضبى: قلت لأعرابى منا ما البلاغة؟ قال الايجاز فى غير عجز، والإطناب فى غير خطل. وقيل للمفضل: ما الايجاز عندك؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعيد.

وهذان التعريفان لأعرابيين، لم تثقفهما حضارة، ولم تهذب آراءهما حياة فكرية منظمة، يصفان الأشياء وصفاً ساذجاً بعيداً عن التركيب والتعقيد. ويكاد التعريفان يكمل كلاهما الآخر ويشرح ثانيهما أولهما. فالبلاغة عند عرب البادية هى سرعة الإفهام؛ أو بعبارة أوسع، هى القصد فى الكلام مع تمام الإفهام، وجعل الاطناب بقدر الحاجة.

وهذا يشرح نزعة العرب إلى الإيجاز التى مر ذكرها.

٢ — أما عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة (٨٠-١٤٤ هـ)، فلم يتبادر إلى عقله، حين سئل عن البلاغة، هذا المعنى الفنى أو القريب منه، أو على الأقل لم يشأ الإجابة عنه؛ بل ظل يتنقل من حديث إلى حديث، وسائله يراجعه حتى لم يكد يبقى سوى هذا التعريف المتصل بالألفاظ والتعبير فذكره، ثم فسره تفسيراً يلائم جوه الدينى الوعظى.

عرف البلاغة بأنها تخبير اللفظ فى حسن الإفهام، وفسر هذا بأن تختار من الألفاظ ما تستحسنه الأذن ويقبله الذهن، وتنجذب إليه النفس فتقرر به حجة الله، وتدعو إلى الموعظة الحسنة من الكتاب والسنة. ويلحظ فى هذا التعريف معنى الصنعة والأناة، ويشرح ماروى عن عمرو ابن عبيد من أنه كان قليل الكلام موجز الحديث كارهاً لاطالة القول؛ إذ تدعوا إلى التكلف، والتكلف لاخير فيه [1]، وكثرة المتأنقين المتخيرين للألفاظ مقلون. ويبين كذلك ما روى عنه من أنه كان يعظ فيجيد الوعظ وينفذ قوله إلى القلوب فيبكيها.

٣ — أما ابن المقفع (١٠٦ - ١٤٢)، الذى عرف بثقافته الفارسية ونقله عنها إلى العربية، فقد عرف البلاغة تعريفا قصد فيه إلى الإحاطة والشمول. ويظهر أن تعريفه لم يكن نتاجا لتطور الفكرة الطبيعى، بل كان متأثراً بثقافته الأجنبية، وإن لم يعدم وجها للشبه بينه وبين ما سبقه.

---

(١) البيان، جـ ١ ص ٩١

ولهذا عد طريفاً فى بابه كما مر .

ويمكن تلخيصه بأنه الإيجاز فى موضعه ، والإطناب فى موضعه، والمعرفة بسياسة القول ، والمطابقة بين الكلام ومقتضاه .

وكأن جرثومة التعريف الاصطلاحى وجدت عند ابن المقفع .

٤ — وقال كلثوم بن عمرو العتابى ، المتوفى سنة ٢٢٠ هـ ، حين سئل ما البلاغة : « كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسة ولا استعانة فهو بليغ . فاذا أردت اللسان الذى يفوق الألسنة و يفوق كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل بصورة الحق [1] »

والقسم الأول من التعريف يكاد يكون توضيحاً لمدلول الكلمة اللغوى ، فهى عنده أن يبلغ المتكلم غايته من إفهام السامع غرضه على أتم وجه وأيسره . أما القسم الثانى فبين فيه النزعة الجدلية التى تجيز تصوير الباطل حقاً والحق باطلا ، وتتلاعب بالمنطق وبالألفاظ .

وهذا القول ليس غريباً من العتابى ؛ فقد عاش فى الشام كما سبق ، وصحب البرامكة ، ونسب إليه من الكتب كتاب المنطق وكتاب الألفاظ [2]

٥ — واختار الجاحظ تعريفا للبلاغة فقال : « وقال بعضهم ، وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ٩٠ ، ١٥٧

إلى قلبك »[١] .

وهذا الاختيار يتفق مع مذهب الجاحظ الذى يدعو إلى التجويد اللفظى وحسن الصياغة، مع تحرى المعانى الشريفة .

٦ — تعريف البلاغة عند غير العرب :

روى الجاحظ عن محمد بن حسان ما يأتى : قيل للفارسى : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل . وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام . وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة . وقيل للهندى : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة . وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، وأن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الافصاح أوعر طريقة ،ور بما كان الاضراب عنها صفحا أبلغ فى الدرك وأحق بالنظر[٢] .

ويظهر أن تعريف الفارسى أثر فى بعض علماء البلاغة الذين قصروها على الفصل والوصل.

أما تعريف اليونانى ، للبلاغة بتصحيح الأقسام واختيار الكلام ، فواضح فيه النزعة الفلسفية الداعية إلى تحديد الألفاظ ، ووزن الكلمات بميزان دقيق ، وتحرى أن يكون كل لفظ لمعناه لفقا ، والدعوة إلى التنسيق

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ٩١ (٢) البيان ، جـ ١ ص ٧٥

والترتيب وانتظام أجزاء الموضوع لفكرة واحدة ، و إيراد العناصر والبراهين فى ترتيب ، حتى يجذب البليغ انتباه السامع أو القارىء ، ولا يوقعه فى الملال ولا يحمله إصر جهد يبذله فى إدراك المراد .

وتعريف الرومى للبلاغة ، بالإيجاز الحسن فى موضعه والإطالة الشافية فى موضعها ، شبيه بتعريف الأعراب السابق .

و اذا نظرنا فى تعريف بعض أهل الهند ، ولم ننس تعريف ابن المقفع وتحدثه عن بلاغة الكناية والاشارة و بلاغة السكوت و بلاغة الاحتجاج - رأينا نوعا من الشبه بين التعريفين .

وقد أورد الجاحظ ترجمة صحيفة هندية فى البلاغة جاء فيها : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة ، و يكون فى قواه فضل للتصرف فى كل طبقة ، ولا يدقق المعانى كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أو فيلسوفا عليما ، ومن قد تعود حذف فضول الكلام و إسقاط مشتركات الألفاظ ، قد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة الاعتراض والتصفح ، وعلى جهة الاستظراف والتظرف »[١] .

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٧٩

وهذا القول فى جملته دعوة إلى الملاءمة بين الخطبة و بين السامعين لها ، ومخاطبة كل طائفة بما يناسبها ، وشرح للأسلوب الخطابى القائم على السهولة وَعدم التكلف . والطريف فيه هو الربط بين البلاغة و بين المنطق ، وتقرير أن البليغ لا مناص له من تمام الإلمام بهذا العلم وحسن امتثاله ، وأنه لا يكفيه الاطلاع السريع والنظرة الطائرة .

ج — مسائلها

يمكن إجمال المتفرق فى كتب الجاحظ من المسائل البلاغية فيما يأتى :

١ — أمور تتصل بالنطق أو بأداة الخطابة :

لا بد لحسن البيان من إعطاء الحروف حقها من سلامة الإخراج ، وتكميل النطق وصحة اللسان . وهناك عيوب تعترى النطق ، أكثرها شيوعا : اللثغة ، والتمتمة، والفأفأة ، واللفف، والحبسة، واللكنة، والحكلة .

واللثغة : هى تعذر النطق بحرف ونطق غيره بدله ، وتدخل القاف والسين واللام والراء . فالقاف تنطق طاء ، والسين تنطق ثاء ، واللام تنطق ياء ، والراء تنطق ياء أو غينا أو ذالا أو ظاءاً .

وهناك لثغات شاذة لا سبيل إلى تصويرها ، كلثغة واصل بن عطاء . والتمتمة : هى التتعتع فى التاء وصاحبها تمتام . والفأفأة : هى التتعتع فى الفاء وصاحبها فأفاء . واللفف : إدخال بعض الكلام فى بعض . والحبسة : هى ثقل النطق على اللسان . واللكنة : هى مايعترى العجم ، أو من نشأ فيهم من العرب ، من عدم القدرة على إخراج الحروف إخراجاً سليما ، ومن الغلط فى شكلها . والحكلة : عجز أداة اللفظ ، حتى لا تعرف المعانى إلا بالاستدلال .

وهذه العيوب جميعها تتصل باللسان . لكن هناك عيوباً أخرى ، منشؤها نزع الأسنان أو تشوه الفم ، تحدث صفيراً ونحوه عند النطق (١)

٢ — مظهر الخطيب :

لاتزان الشمائل ، ونقاء اللهجة ، وجهارة الصوت ، والجمال ، والحركة والإشارة ، واللباس ، ونحو هذا — أثر أى أثر فى المستمعين .

ومن عيوب الخطيب : البهر ، والارتعاش ، والرعدة ، والعرق ، والسعال ، و التنحنح ، والاستعانة .

و يطيل الجاحظ فى مثل هـذه الأمور الخارجة عن جوهر القول ، ولكنها ذات أثر فى المستمعين (٢) . وقد اختفت هذه المسائل من علم البلاغة المتأخر ، ولكن لما كانت البلاغة عند الجاحظ يلحظ فيها معنى الخطابة كما سبق ، لم أجد مناصاً من إيراد هـذه الأمور فى مسائل البلاغة .

٣ — فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام :

ينبغى أن تكون الكلمة فصيحة بريئة من تنافر الحروف ، حتى تبدو كأنها حرف واحد (٣) . وتجنب التنافر يكون بملاحظة الحروف

---

(١) البيان والتبيين ، جـ ١ ص ٣٥ — ٤٨ وص ٥٨ و ص ٦٦

(٢) البيان ، جـ ١ ص ١٠٢ (٣) البيان جـ ١ ص ٦٣

التى لا تتجاور ، فالجيم لا تقارن الظاء ، ولا السين ، ولا الضاد ، ولا الذال بتقديم ولا بتأخير (١) .

ويجب كذلك : أن تكون مألوفة غير غريبة ، فالفأفأة والقرقرة من الألفاظ الغريبة المستهجنة ، والمغربون : قوم مدخولون فى عقولهم إذا كانوا من غير الأعراب . وهذا أبو علقمة يصيح بالناس حين هاجت به مرّته ، فاجتمعوا عليه : مالكم تتكأكؤون علىّ تكأكؤكم على ذى جنة ؟ . إفرنقعوا عنى ! فيقول رجل منهم : دعوه ، فإن شيطانه يتكلم بالهندية !.

وأغرب من هذا : أن يأتيه حجام يحجمه فيقول له : « أشدد قصب الملازم (٢) ، وأرهف ظبات المشارط ، وأسرع الوضع ، وعجل النزع ، وليكن شرطك وخزا ، ومصك نهزا ، ولا تكرهن آبيا ، ولا تردن آتيا » ، فوضع الحجام محاجمه فى جونته وانصرف (٣) .

وكل هذا يبين مبلغ سخرية الجاحظ من الغريب وأهله ، والتكلف وأصحابه .

ويجب كذلك : أن يكون الكلام فصيحاً غير مبهم ولا متنافر .

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ٦٤
(٢) جمع ملزم « خشبتان مشدود وسطهما بحديدة في طرفها مفتاح »
(٣) المحاسن والأضداد ، ط ليدن ، ص ١٤ — ١٥

فمن المستكره قول بشير فى أحمد بن يوسف :

لم يضرها والحمد لله شىء وانثنت نحو عرف نفس ذهول

وقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فالقول الفصيح : هو المتلاحم الأجزاء ، السهل المخارج ، الخفيف على اللسان (١) .

٤ — مطابقة الكلام لمقتضى الحال :

كثيرا ما دعا الجاحظ إلى هذا المعنى الذى يلازم البلاغة إلى اليوم ، فتراه يقول : « حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وفقا ... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم (٢) . ويعرض لوجوب تحرى الموضوع المتحدث عنه ، واختيار ما يلائمه من الألفاظ ، وعدم استعمال الاصطلاحات إلا فى العلم الخاص بها . ثم يختم الحديث بقوله : (ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل) (٣)

بل إن محافظة الجاحظ على تمثيل الحال ، ودقة التصوير للمراد ، جعلته يدعو إلى اللحن ومجانبة الإعراب حين يقتضى المقام هذا ، كحكاية

---

(١) البيان والتبيين ، جـ ١ ص ٦٢ — ٦٣

(٢) البيان والتبيين ، جـ ١ ص ٧١

(٣) الحيوان ، جـ ٣ ص ١٠٤

حال المولدين و إيراد نكتة ، ثم جعلته يذكر أسماء العورات و يصطنع الأدب المكشوف ، ويرمى المنكرين لهذا بالتكلف للعفاف والوقار[١] .

ولعل من أبلغ أقواله دلالة على هذا قوله : «لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء ؛ فالسخيف للسخيف ، والجزل للجزل ، والافصاح فى موضع الافصاح ، والكناية فى موضع الكناية ، والاسترسال فى موضع الاسترسال . و إن كان موضع الحديث على أنه مضحك وملهِ وداخل فى باب المزاح واللعب ، فاستعملت فيه الاعراب انقلب عن جهته ، و إن كان فى لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذى وضع على أن يسر النفوس يكربها و يأخذ بأكظامها . و بعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الحر...و... و... ارتدع ، وأظهر التقزز . واستعمل باب التورع . وأكثر من نجده كذلك فانما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع»[٢].

٥ — إرشادات بلاغية متنوعة ؛ من نحو انتقاء الألفاظ ، والاقتدار فى القول ، والتغلب فى المكان .

---

(١) اقرأ رسالته فى القيان

(٢) الحيوان ، ج ٣ ص ١٢

٦ — وأساء جماعة فهم البلاغة ، فخالوا أنها نوع من الأحاجى والألغاز . ويتضح هذا من قول ابن بشار اليرقى : « كان عندنا وحد يتكلم فى البلاغة ، فسمعته يقول: لو كنت أنا ليس أنا وأنا ابن من أنا منه ، لكنت أنا أنا وأنا ابن من أنا منه . فكيف وأنا أنا ، وأنا ابن من أنا منه! » .

٧ — اللفظ والمعنى :

يرى الجاحظ : أن شأن البلاغة فى الأسلوب واللفظ ودقة الصنعة ، ويخالف أبا عمرو فى اعتبار المعنى مقياسا للبلاغة ، فيقول تعليقا على بيتين من الشعر : « وأنا قد سمعت أبا عمرو ، وقد بلغ من استجابته لهذين البيتين ، ونحن فى المسجد يوم الجمعة ، أن كلف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا حتى كتبهما له . وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبدا ، ولو لا أن أدخل فى بعض القيل لزعمت أن ابنه أشعر منه ؛ وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البِلَى   وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا   أفظع من ذا لذُل السؤال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعانى ، والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقروى ؛ وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفى صحة الطبع وجودة السبك .

فإنمـا الشعر صناعة ، وضرب من الصبغ ، وجنس من التصوير [١] .

فأبو عمرو ينظر إلى هذين البيتين ، فيرى أن معناهما — وهو أن المسألة أشد وقعا على النفس من الفناء ، إذ كلاهما موت ، ولـكن الأول شر من الثانى لذلة المسألة — جميل جدير بالتدوين ، ويغلب عليه طبع اللغوى فلا ينظر إلى ما فوق المعانى .

لكن الجاحظ يرى أن البلاغة فن كالصبغ والتصوير ، وأن المعانى تشبه المـواد التى يصطنعها الفنان ، والألفاظ تشبه الشكل الذى تؤلف عليه الصورة ، والعبرة بالتأليف والشكل الناطق لا بالمواد والألوان . ذلك بأن المواد فى متناول الناس جميعا ، ولـكن الفنان الحق هو الذى يتخذها أداة لتمثيل الحياة ومعانيها فى صور بارعة .

وهــذا لا يعنى أن الجاحظ ينكر المعانى وخطرها فى باب البـلاغة . فما كل مادة بصالحة للاصطناع ، ولا كل لون بملائم للاتخاذ فى كل حال . وكثير من الناس يستنبط مواد ويبتدع ألوانا . ولهذا تراه يذكر من المعـانى الغريب العجيب ، والشريف الـكريم ، والبـديع المخترع ؛ وكيف يتنازعها الشعراء ، ويدعى كل أنها من بنات فـكره ووحى خياله . وإن من هذه المعانى ما يخرجه الشاعر إخراجا لا يبارى ، فينصرف الشعراء عنه ويتحاشونه ، فيقول :

---

(١) الحيوان ، ج ٣ ص ٤٠

ولا يعلم في الأرض شاعر مقدم فى تشبيه مصيب تام ، وفى معنى غريب عجيب ، أو فى معنى شريف كريم ، أو فى بديع مخترع - إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إن هو لم يقدر على لفظه ، فيسرق بعضه ، أو يدعيه بأسره ، فانه لا يدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكا فيه ؛ كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء ، فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه . أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال : إنه خطر على بالى من غير سماع ، كما خطر على بال الأول . هذا إذا قرعوه به ، إلا ما كان من أمر عنترة فى صفة الذباب ؛ فانه وصفه فأجاد وصفه ، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرضوا له . ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك ، ومن اضطرابه فيه أنه صار دليلا على سوء طبعه فى الشعر . قال عنترة :

جادت عليها كل عين ثَرّة ... فتركْن كلَّ حديقة كالدرهم
فترى الذبابَ بها يغنى وحده ... هَزِجاً كفعل الشارب المترنم
غَرِداً يَحُكُّ ذراعَه بذراعه ... فعل المُكِبِّ على الزناد الأجزم

قال : يريد فعل الأقطع المكب على الزناد ، والأجزم : المقطوع اليدين . فوصف الذباب إذا كان واقفا ، ثم حك إحدى يديه بالأخرى ، فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين ، يقدح بعودين ، ومتى سقط

الذباب ، فهو يفعل ذلك .

ولم أسمع فى هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة .

فالجاحظ : قد استحسن المعانى مصوغة هذه الصياغة البديعة الدقيقة ، ومخرجة هذا الاخراج الفنى . لكنه يبغض المبالغة والغلو والتهويل ، ويراها دليل الاستيحاش ، والإيغال فى البداوة ، وينكر هذا اللون من شعر الأعراب القائم على مرافقة الغول والذئب ، ومحالفة الجن ، ويعده ضربا من الغباوة وسوء التمييز (١) .

وتبدو عناية الجاحظ بالألفاظ والمعانى معاً فى مواضع كثيرة من كتبه . فتراه كثيراً ما يضم المعانى إلى الألفاظ فى الحديث عن البلاغة وتأثيرها فى النفوس .

ومن هذا قوله : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظهِ . . . فاذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف ـ صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة » (٢) .

وأوضح هذا المعنى فى فصل عقده تحت عنوان : « فصل فى صفة من يقدر على الإبانة » ، جاء فيه : « وليس يقدر على ذلك إلا امرؤ فى طبيعته فضل من احتمال غيرته ، وفى قريحته زيادة من القوة على صناعته ؛

---

(١) الحيوان ، جـ ٦ ص ٧٨ (٢) البيان ، جـ ١ ص ٤٧

حتى لا يضع اللفظ الحر النبيل إلا على مثله من المعنى ، ولا اللفظ الشريف الفخم إلا على مثله من المعنى . نعم : وحتى يعطى اللفظ حقه من البيان ويوفر على الحديث قسما من الصواب ، ويحقق للكلام حظه من المعنى ، ويضع جميعها مواضعها ، ويصفها بصفتها ، ويوفر عليها حقوقها من الإفصاح والإعراب » [١] .

فالبلاغة عند الجاحظ فى الأسلوب والنظم ، ولكن المعانى ينبغى أن تكون كذلك شريفة ؛ فما كل معنى بصالح للتأليف البليغ ، والنظم البديع .

٨ — النظم :

تحدث الجاحظ عن النظم بمعنى البيان والإنشاء ، وجعل له أصنافا من القصيد ، والرجز ، والمزدوج ، والمجانس ، والأسجاع ، والمنثور [٢] .

كما وردت كلمة النظم بمعنى التأليف فى مواضع عدة [٣] . وذكر النظم فى معرض حديثه عن إعجاز القرآن ، فقال مرة : إن الرسول تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه [٤] ، وقال أخرى : إن

---

(١) هامش الكامل، ج ٢ ص ٢٣٧
(٢) هامش الكامل، ج ٢ ص ١٠٣
(٣) هامش الكامل ، ج ٣ ص ٧ و ١٠٣ و ١٢٨ و ٢٠٣
(٤) هامش الكامل، ج ٢ ص ٤٤

الله صرف نفوس العرب عن المعارضة للقرآن ، ورفعها من أوهامهم بعد أن تحداهم الرسول بنظمه .

وشرح الحكمة فى هذا، فقال : «ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة ، لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب والنساء وأشباه النساء ، ولألقى ذلك المسلمين عملا ، ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال » . ثم يقول بعد كلام آخر : « وفى كتابنا المنزل الذى يدل على أنه صدق نظمه البديع ، الذى لا يقدر على مثله العباد ، مع ماسوى ذلك من الدلائل التى جاء بها من جاء به »[١] .

ومن هذا يتبين أن إعجاز القرآن عند الجاحظ فى نظمه ، ولكن الله صرف العرب فى الوقت نفسه عن محاولة محاكاته خشية الفتنة .

وقد عنى بموضوع النظم حتى ألف فيه كتابا ، أسماه « نظم القرآن» .

---

(١) كتاب الحيوان ، ج ٤ ص ٣٢

الفصل الثانى

البيان : معناه ، تعريفه ، مسائله

١ — معنى البيان

١ — أتى البيان بالمعنى اللغوى العـام فى مواضع كثيرة من كتب الجاحظ ، فكان بمعنى الإفهام والدلالة عند ما يورد قول الله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ، ثم يقول : (لأن مدار الأمر على البيان والإفهام)[١] ، وحين يقول ، فى معرض الحديث عن الدلالة ووسائلها : «فبأى شىء بلغت الإفهام ، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان »[٢] .

ومن هنا قال : إن لمـا سوى الإنسان من الحيوان والجماد دلالة تسمى بيانا ، وذكر أن الخالق وصل بين معارف الخلق بالبيان عنها ، فكان سببا فيما بينهم ، ثم لم يرض من البيان بصنف واحد ، بل عدد وأظهر ، فجعله فى خمسة أنواع : لفظ ، وإشارة ، وعقد ، وخط ، وحال . . . ورطانة الأعجمى كذلك بيان ، كما أن صوت الحيوان بيان ، وإن قال عربى : إنه ليس من البيان ، لأنه غير مفهوم عنده ، فهو أيضا لا يفهم

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ٢٨ (٢) البيان ، جـ ١ ص ٦٨

كلام عامة الأمم ، ولا يفهمون كلامه ، فيحق لهم أن يخرجوه من البيان كما أخرج كلامهم منه .

أما الصحيح : فهو أن تلك الأقدار من الأصوات التى يستعملها العربى « هى : نهاية حاجاته والبيان عنها ، كما أن الأقدار من الأصوات التى يستعملها الأعجمى هى نهاية حاجاته والبيان عنها » (١) فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح (٢). بل إن النمل لها بيان يفصل بين المعانى التى هى بسبيلها (٣).

وقد وصف البيان بالرداءة والفساد ، كما وصفه بالحسن والجودة . وكان بمعنى العيان والظهور فى نحو قوله : « أنت تجد ذلك عيانا ، وتشهده عينك بيانا » .

وكان بمعنى الإيضاح أو البرهان فى قوله عن القرآن إن ناسا طعنوا فيه « بغير علم ولا بيان » (٤) ، وفى مرادفته بين البيان والبرهان فى قوله : « سأوضح لك ذلك بالبرهان القاطع والبيان الساطع » (٥).

وفى قوله : حين يتحدث عن الأخبار وتدافعها وفقد الدليل عليها : « فوجدنا الأخبار مختلفة ، والمختلف متدافع ، وليس فى المتدافع والمتكافىء بيان » .

---

(١) البيان ، ج ١ ص ٦٩ (٢) الحيوان ، ج ١ ص ٦٩
(٣) الحيوان ، ج ٤ ص ٦١٣ (٤) الحيوان ، ج ٤ ص ٣
(٥) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٢٢٩

٢ — ولكنه أتى كذلك بالمعنى الفنى ، أو ما هو قريب منه فكان بمعنى البلاغة حين يضع البيان مرادفا لها ، ويذكر ما فى البلاغة المشوبة بالتكلف ، والبيان الممزوج بالتعمل ، من لائمة ومذمة(١).

ويظهر هذا المعنى فى قول جعفر بن يحيى ، وقد سئل ما البيان : « أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة . والذى لابد منه : أن يكون سليما من التكلف ، بعيدا من الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل » ؛ وهذا هو ما قيل فى البلاغة كما سبق .

ثم يعلق الجاحظ على هذا بقوله : « وهذا هو تأويل قول الأصمعى : « البليغ : هو من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر » ؛ فيجعل ما قيل فى البيان تأويل ما قيل فى البلاغة . كما يظهر فى قوله عند تكلمه عن صناعة البلاغة ، وكتب الأعاجم فيها : « فمن قرأ هذه الكتب عرف غور تلك العقول ، وعرف أين البيان والبلاغة ، وأين تكاملت تلك الصناعة »(٢)

وفى قوله عند التكلم عن بلاغة العرب : « وكان صاحب المنطق نفسه بكئ اللسان غير موصوف بالبيان ، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة » . فهو فى

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ٢٩

(٢) البيان ، جـ ٣ ص ٧

هذه العبارة وضع البلاغة والخطابة والبيان فى أوضاع متساوية ، مقابلا بينها وبين المنطق .

والأمثلة عديدة على الجمع بين البلاغة والبيان ، جمعا فيه معنى المرادفة .

واستعمل البيان كذلك فى المعانى التى استعملت فيها البلاغة :

٣ — فأتى مقابلا للعى فى قوله : سحبان مثل فى البيان و باقل مثل فى العى ، وفيما رواه من قول حميد بن ثور الهلالى :

أتانا ولم يَعْدِلْهُ سحبان وائل　　بيانًا وعلما بالذى هو قائل

فما زال عنه اللقم حتى كأنه　　من العى لما أن تكلم باقل[1]

وفى قول زيد بن على جوابا لمن سأله : الصمت خير أم الكلام ؟ .

«أخزى الله المساكتة فما أفسدها للبيان وأجلبها للحصر ! والله للمماراة أسرع فى هدم العى من النار فى يبس العرفج ، ومن السيل فى الحدور »[2] .

وفى قول الجاحظ : « البيان بصر ، والعى عمى » ، وفى قول يونس ابن حبيب : « ليس لعيي مروءة ولا لمنقوص البيان بهاء »[3]

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ٢٤　　(٢) البيان ، جـ ١ ص ٢٠٥

(٣) البيان ، جـ ١ ص ٦٩

وفى قوله عن الكتاب : « إن شئت كان أبين من سحبان وائل ، وإن شئت كان أعيا من باقل »[1].

وفى قوله: « كسد العى والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم » .

ولوحظ فيه معنى الخطابة أو الحديث ، كالبلاغة . فتراه يعقد فصلا عنوانه : « فى صفة من يقدر على الإبانة » يذكر فيه الصفات التى تتصل بالقدرة على الخطابة ، من نحو القوة فى الموقف وزيادة القريحة وتوضيح المعانى وتخير الألفاظ وتجنب الغريب[2] .

ويتحدث عن حاجة البيان الى سهولة المخرج ، وجهارة الصوت ، وتكميل الحروف ، وإعطائها حقها من الظهور[3] ، والاشارة باليد والرأس[4] ، كما يذكر لوازم الخطابة فى باب البيان .

ويتحدث عن إخراج الحروف والإلقاء ، ومقومات النطق ، وعيوب اللسان ويفصل القول فيها .

٥ — وكان بمعنى الفن المستقل ذى المحامد ، والمحاسن ، والمبادىء ، والأصول التى تدرك بالتعلم . فتراه يتحدث عن صحة البيان ، وما يحمد وما لا يحمد فيه .

---

(١) الحيوان ، جـ ١ ص ٢٠

(٢) هامش الكامل ، جـ ٢ ص ٢٣٧

(٣) البيان ، جـ ١ ص ٣١ (٤) البيان ، جـ ١ ص ٧٠

ويورد قول النجفى : إن سبق (كان) ، (بلا) غير محمود فى باب البيان[١] ؛ كما يجمع بينه وبين غيره من الفنون التى يتسابق فى ميدانها الناس ، ويسعون إلى التفوق فيها ، كالفروسية[٢] .

ويتحدث عن البيان وتعلمه والقدرة منه على ما يعجز الأقران عنه[٣] .

٦ — وبمعنى الخلابة فى التعبير والعناية بالقول فى نحو حديثه عن خديعة البيان ، وإيقاعه فى حبائل النفاق[٤] ، وذكره البيان ، واقتدار صاحبه على نصرة رأيه بالحق وبالباطل واستشهاده بقول أعرابى :

برئت إلى الرحمن من كل صاحب ... أصاحبه إلا حماس بن ثامل
وظنى به بين السماطين أنه ... سينجو بحق أو سينجو بباطل[٥]

وروايته عن مالك بن دينار أنه ربما سمع الحجاج يخطب ذاكرا ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع فى نفسه أنهم يظلمونه ، وأنه صادق البيان ، لحسن تخلصه بالحجة .

ثم يقول الجاحظ : فالذين كرهوا البيان ، إنما كرهوا مثل هذه المذاهب[٦] .

---

(١) الحيوان ، ج ٣ ص ٩٠
(٢) الحيوان ، ج ١ ص ١٧٩ — (٣) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٨٠
(٤) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٨٣ — (٥) البيان ، ج ١ ص ١٥٠
(٦) البيان ، ج ١ ص ٢٤٩

ومن هذا يتبين أن أمر البيان تخالف كل المخالفة لأمر البلاغة ، فقد كان القوم حتى هذا العصر لا يفهمون من الكلمة هذا المعنى الاصطلاحى المتأخر ، بل تكاد كلمة البيان تكون عندهم مرادفة لكلمتى الفصاحة والبلاغة . واستعمالات كلمة البيان من ناحية الإضافة ووصفها أو الوصف بها والعطف عليها كاستعمالات كلمة البلاغة ، اللهم إلا انفراد البيان بوصفه بالرداءة والفساد والجودة والحسن والجمال والسطوع [١] ، فمن البيان والبلاغة أتت صفة للمنطق واللفظ واللسان والناس والقلم والخطباء ، وتعاطف الخطباء والبلغاء والابيناء ، والبلاغة والخطابة والبيان عطف تفسير .

أما الفصاحة فقد أتت كذلك مرادفة للبيان والبلاغة فى مواضع كثيرة وعطفت على البلاغة فى قوله من كلام مستهجن رواه بعض الكتاب فى كتبهم : « فان كانوا قد رووا هذا الكلام ، لأنه يدل على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والخطابة » . كما عطفت على البيان فى قوله : « فلو أننا لم نجعل لمحمد صلى الله عليه وسلم فضيلة فى نبوة ولا مزية فى البيان والفصاحة لكنا لا نجد بدا من أن نعلم أنه كواحد من الفصحاء » [٢] .

وعطف الافصاح على البيان عطف تفسير فى قوله : « ومدح الله

---

(١) البيان جـ ١ ص ٢٨ و ٥٩ و ٧٥ وجـ ٢ ص ٦٧ و ٢٢٢ وجـ ٣ ص ١٧٣ وهامش الكامل جـ ١ ص ٢٦ و ٨٦ وجـ ٢ ص ٨٢ و ١١٤ و ٣٢٩ و ٢٣٥ و ٢٣٦ والمحاسن والأضداد ص ٦ والحيوان جـ ١ ص ١٤٠ و ٣٠٦

(٢) الحيوان جـ ٤ ص ٩٣

القرآن بالبيان والافصاح وحسن التفصيل والايضاح ، وبجودة الافهام وحكمة الابلاغ [1] » .

وقد تأتى بمعنى مطلق النطق الذى يفصل بين الانسان والحيوان ، فيدخل فيها كل تعبير بأى لغة من اللغات . ومن هذا قوله : « والانسان هو الفصيح وهو الناطق . . . » .

وقوله : « والانسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية ، وليس العربى أسوأ فهما لطمطمة الرومى من الرومى لبيان لسان العربى . فكل إنسان من هذه الوجهة يقال له فصيح » .

غير أن الفصاحة كان لها بعد هذا معنى مستقل يميزها عن البيان والبلاغة ومطلق النطق . ذلك هو الأداء اللفظى الكامل من حيث مخارج الحروف والبعد عن اللكنة واللحن والعجمة .

والنصوص فى هذا كثيرة ، منها قوله :

« وقال معاوية يوما : مَنْ أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيامنوا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن كسكسة مضر ، وليست لهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قريش . قال : ممن أنت ؟ قال : من جُرْم [2] » .

فالفصاحة هنا البعد عن هذه العيوب اللفظية المتنوعة . وتحدث عن

---

(١) البيان جـ ١ ص ٢٦ (٢) البيان جـ ٣ ص ١٢٧

العرب الذين يفسدون لغتهم بطول إقامتهم فى دار أعجمية ، وكيف يلحنون بنصب المرفوع ورفع المنصوب ، وعلل لهذا بأن اللغه العربية إنما استوت «وتكاملت بالخصال التى اجتمعت لها فى تلك الجزيرة وفى تلك الجيرة ». ثم ضرب المثل لهذا بيزيد بن كثوة - وقد كان أعرابيا تؤخذ عنه اللغة . فقال : « ولقد كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد ، على أنه قد كان وضع منزله فى آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة [1] » .

وقال نقلا عن أبى عمرو بن العلاء :

« لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، وكان مازعموا لايبرئهما من اللحن » . فيجعل الفصاحة بمعنى البعد عن اللحن [2] .

وقابل بينهما وبين اللكنة فى قوله :

« فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب ، والاغلاق والابانة ، والملحون والمعرب ، كله سواء وكله بيانا [3] » .

ومما سبق فى فصل البلاغة يتبين أن الفصاحة بهذا المعنى كانت عنده شرطا للبلاغة .

---

(١) البيان جـ ١ ص ١٢٢ (٢) البيان جـ ١ ص ١٢٣

(٣) البيان جـ ١ ص ١٢٣

ب ــ تعريف البيان

١ ــ عرف الجاحظ البيان تعريفا عاما ، فقال : إنه اسم جامع لكل شيء كشف قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ويلم بما فيه .

وشرح هذا وعلل له بأن مدار الأمر وغاية القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأى شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان [١] .

٢ ــ وعرفه فى هذا الموضع نفسه تعريفا آخر ، فقال : إنه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفى ، وإن البيان بهذا المعنى هو الذى دعا إليه الله ، ونطق به القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم ...

ومهد لهذا التعريف بذكره أن المعانى مستورة مكنونة وموجودة فى معنى معدومة ، لا يعرف الانسان ما فى ضمير أخيه الانسان منها ، وحياتها فى ذكر الناس لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها ؛ وبهذا تقرب من الفهم وتظهر وتؤلف . وأقدار المعانى وظهورها متصلة بأقدار الدلالات ووضوحها والاشارات وصوابها والايراد وحسنه . . .

وبعد أن يورد هذا وذاك ، يذكر أصناف الدلالات من لفظ وإشارة

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٨

وعقد وخط وحال ، إذ جميعها تدل وجميعها تبين .

٣ — أما جعفر بن يحيي المعروف بالايجاز وحضور الجواب والبعد عن التكلف ، فيعرف البيان بقوله : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة . ولا بد من أن يكون سليما من التكلف ، بعيداً عن الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنياً عن التأويل .

ويعقب الجاحظ على هذا التعريف بقوله : « وهذا هو تأويل قول الأصمعى : البليغ هو من طبق المفصل وأغناك عن المفسر » .

وفى جميع هذه التعاريف ترى نزعة إلى تمام الافهام وحسن التجلية للمعانى ، كما أن حديث الجاحظ لا ريب عن المعانى وموتها وحياتها ، وحظ الألفاظ بخاصة والدلالات بعامة فى البيان عنها — فيه تفكير وعمق .

وإذا تأملنا فى تعريف جعفر بن يحيى للبيان ، وملاءمة الجاحظ بينه وبين تعريف الأصمعى للبلاغة ، ولاحظنا تعريفات البلاغة السابقة — تبينا مدى مرادفة البيان للبلاغة ، ومقدار اتحاد معناهما فى ذلك العصر .

على أنا إذا نظرنا فى التعريفين الأولين ، وفى أنواع الدلالات على المعانى ، ولم ننس مرادفة البيان للبلاغة حينئذ ، واختلاط أمرهما على ما بينا ، وأنهم قالوا إن البلاغة كما تكون فى التصريح تكون فى الكناية والتلميح وغيرهما مما ذكر فى باب البلاغة — إذ قدرنا كل ذلك ، فهل يمكن أن

نجد لبحوث البيان المتأخرة ولتعريفه بأنه العلم الذى يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه . أو بعبارة أخرى : العلم الذى يبين طرق الدلالات على المعنى الواحد — أصلا ؟ ربما صح هذا .

على أن بعض موضوعات علم البيان كانت معروفة عندهم ، وكان يطلق عليها اسم البديع . وسنوردها فيما يأتى .

ج – مسائل البيان

ذكر الجاحظ فى معرض الحديث عن البيان مسائل بعيدة عن علم البيان المتأخر ، فعرض لتنافر الألفاظ والحروف والغرابة وما اليها مما ذكرناه فى باب البلاغة (١).

ومعروف أن هذه مسائل وضعت أخيراً فى باب الفصاحة ، وجعل البيان علماً خاصاً ببحوث التشبيه والمجاز والكناية .

ويلاحظ كذلك أن الجاحظ جعل عنوان كتابه «البيان والتبيين» ، وأورد فيه أموراً متنوعة متصلة بالبلاغة والخطابة ، وضمنه نثراً ونظما .

وهذا كله من البيان عنده . وعقد بابا خاصا للبيان تحدث فيه عن البلاغة . . .

ومن هنا يتأكد ما مر من أن الفرق بين البلاغة والبيان لم يكن ظاهراً حينئذ ، بل إن هذا الاختلاط قد ظل موجوداً إلى العصور المتأخرة . فيسمون العلوم الثلاثة علوم البلاغة أو البيان ، ويسمون البلاغة براعة وبيانا وفصاحة أيضاً (٢) .

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٦٢ – ٧٢

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ، طبعة كلكتة سنة ١٨٦١ ، ص ١٣٨ مجلد أول.

على أن بعض بحوث البيان بالمعنى الاصطلاحى كانت معروفة عندهم ، وكان يطلق عليها اسم « البديع » .

فالجاحظ يقول : وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة (١) . والبديع هنا اسم شامل للمجاز وما إليه من الصور البيانية . ويتبين هذا من ايراد الجاحظ لأبيات منها :

هم ساعد الدهر الذى يتقى به ‏ ‏ ‏ ‏ وما خير كف لا تنوء بساعد

وتعليقه عليه بقوله : « قوله هم ساعد الدهر انما هو مثل ، وهو الذى يسميه الرواة « البديع » وقد قال الراعى :

هم كاهل الدهر الذى يتقى به ‏ ‏ ‏ ‏ ومنكبه إن كان للدهر منكب

وقد جاء فى الحديث « موسى الله أحد ، وساعدالله أشد » . والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان . والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع » (٢) .

---

(١) البيان ج ١ ص ٥٥
(٢) البيان ج ٣ ص ٢٤٢

وها هى ذى مسائل البيان كما تصورها كتب الجاحظ :

١ — التشبيه

أتى التشبيه عند الجاحظ بمعنى الربط بين شيئين بأداة لجهة جامعة بينهما .

فتراه يقول : إن جريراً شبه أشياء من المرأة بأشياء من الحشرات وغيرها ، ومن بينها الجُعل فى قوله :

ترى التيمى يزحف كالقرنبى[١] إلى تيمية كعصا المليل
يشف الزعفران عروس تيم وتمشى مشية الجعل الدحول
يقول المجتلون عروس تيم سوا أم الحنين ورأس فيل[٢]

ونتبه إلى مافى هذه الأبيات من تشبيه أداته الكاف فى البيت الأول ومحذوف الأداة فى البيت الثانى .

ويذكر كذلك التشبيه بكأن ، حين يقول : إن الأعشى قد شبه ناقته بالظليم ، وإن الأعشى قد سلك هذا المسلك حين قال :

كأنى وردفى وَالقِرَابَ ونُمرقى
على خاضب الساقين أرعن نَقْنَقِ[٢]

---

(١) الحيوان ، ج ٦ ص ١٣٢ (٢) الحيوان ، ج ٤ ص ١١٥

وحين يذكر كفر أبى نواس ، ثم يقول : إنه لا يعرف له من بعد هذا خطأ سوى قوله عن الدار وعدم إجابتها لمستنطقها :

كأنها إذ خرست جارمٌ بين ذوى تفنيده مطرقُ

فقد عابوه بذلك ، وقالوا : لا يقول أحد لقد سكت هذا الحجر ، كأنه إنسان صامت ، وإنما يوصف خرس الإنسان بخرس الدار ، ويشبه صممه بصمم الحجر(١).

وفى هذا القول يظهر فهم الجاحظ لوجه الشبه ولزوم كونه أقوى فى المشبه به منه فى المشبه .

ولكن بيت أبى نواس قد يفهم ما فيه على أنه تشبيه مقلوب ، لم يعرفه الجاحظ ، قصد به إلى تمثيل حال المرتج عليه أمام قضائه ، فيبدو التشبيه إذاً جميلا بديعاً . لكن هذا التخريج يضعفه أن المقام مقام الحديث عن الدار ، ووحشتها ، لا عن المجرم ، وتمثيل حال الارتاج عليه .

وعرض كذلك للتشبيه « بمثل » فى قوله : إن الأعشى قد شبه النعام بقطع الرباب المتدلى من السحاب فى هذه الأبيات :

يا هل ترى برقاً على الـــجبلين يعجبنى انجيابه (٢)

---

(١) الحيوان جـ ٤ ص ١٤٦

(٢) الحيوان جـ ٤ ص ١١٥

متساقط الأكناف ذى زجل أرب به سحابه
مثل النعام معلقاً لما رقا ودنا ربابه (١)

وفى حديثه عن التشبيه فى الآية الكريمة : (واتْلُ عَلَيهِمْ نبأ الذِى آتيناهُ آياتنا فانسلخَ منها فأتبعهُ الشيطانُ فكانَ مِنَ الغاوِينَ ، وَلوْ شِئْنا لرَفعناهُ بِها ، وَلكنهُ أخلدَ إلى الأرْضِ واتبعَ هواهُ ، فمثلهُ كمثلِ الكلْبِ ، إنْ تحملْ عليهِ يلهثْ ، أوْ تترُكهُ يلهثْ ، ذلكَ مثلُ القوْمِ الذينَ كذبُوا بآياتِنا) .

فى هذا الحديث يتبين مدى معرفة القوم فى ذلك العصر لوجه الشبه وصورة تحققه فى المشبه به والمشبه ، فقد قال أناس : إن هذا المثل لا يجوز أن يضرب لحال من أعطى شيئا ، فلم يقبله ولم يزد على الرفض ، وإن اللهث لم يقع فى موضعه ، إذ الكلب إنما يلهث لعطش أو حر أو تعب .

ويجيب الجاحظ عن هذا الاعتراض بصحة احتمال أن المكذب يطلق على من تكرر منه التكذيب ، أو يشبه الذى أوتى الآيات والأعاجيب ، والبرهانات ، والكرامات ، فى بدء حرصه عليها ، وطلبه لها بالكلب فى حرصه وطلبه ، ويشبه رفضه لها وقذفه بها من يديه ،

---

(١) الحيوان ج ٢ ص ٦

وردها بعد الحرص عليها، وفرط الرغبة فيها ، بالكلب إذا رجع ينبح بعد طردك له ، وشدة النباح تقتضى اللهث .

ثم يقول : إن اللهث طبع فى الكلاب يأتيها وهى رابضة وادعة ، وليس سببه التعب وحده [1].

والمهم فى هذا : هو أن الجاحظ ومعاصريه قد فهموا الصلة بين المشبه به والمشبه فهماً صحيحاً ، وأنهم أخذوا يخضعون الأدب ، وإن كان الأدب القرآنى ، للمعايير النقدية والبلاغية ، فى حرية وصرامة .

ولاحظ الجاحظ كذلك أن وجه الشبه ، إنما هو ناحية فقط من النواحى الموجودة فى المشبه به ، لا كل مافيه ، وأن التشبيه : أمر دفع إليه قصور اللغة عن دقة التصوير للمعانى .

ويقرر أن الشاعر والواصف قد يعجزان عن تمثيل الحال ، فيشبهان بأحسن ما يجدان ، ولا يتحقق لهما شرط التشبيه الصحيح ، وهو أن يكون المشبه به أقوى فى الصفة من المشبه .

مثال هذا أن إنسانا لا يشك فى أن الجارية الفائقة الحسن أحسن من الظبية ، وجيدها أحسن من جيدها ، وعينها أحسن من عينها

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ٦

ومع هذا ترى البعض يقول : كأنها الشمس ، وكأنها القمر . والشمس وإن كانت بهية ، فإنما هي شيء واحد في وجه الجارية الحسناء ، بخلقها المؤلف من ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب .

فالأمر في الحالين متفاوت ، ولكن الشعراء والواصفين قد اضطروا الى هذا . ولو لم يفعلوه لما ظهرت بلاغتهم ولا فطنتهم [١] .

---

(١) هامش الكامل للمبرد ج ١ ص ١٦٣

٢ - المجـــاز

المجاز عند الجاحظ ما يقابل الحقيقة ، فتراه يتحدث عن القرآن وأنه ليس بمخلوق إلا على المجاز [١]، كما يقابل بين الحقيقة والمجاز ويعلل للثانى ضمنا بتوسع أهل اللغة [٢].

وكأن المجاز عنده هو استعمال اللفظ فى غير حقيقته توسعا من أهل اللغة.

وهو يعرض لقول المتكلمين فى الزيت الذى فى المصباح ، وكيف يفنى بتصاعده دخانا ، وما يقال من أن النار تأكله ، ثم يقول : «فإن قلتم فقد قال الله عز وجل فى الكتاب : (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ) ، فقد علمنا أن الله عز وجل إنما كلمهم بلغتهم» . وبعد أن يستشهد بأقوال الجاهليين المؤيدة لهذا الاستعمال المجازى فى القرآن ، يقول: «باب آخر - وهو قول الله عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا) وقوله: (أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ..) ، وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحلل وركبوا الدواب ، ولم ينفقوا منها درهما واحداً فى سبيل الأكل . وقد قال الله عز

---

(١) هامش الكامل جـ ٢ ص ١٢٤

(٢) هامش الكامل جـ ٢ ص ١٢٨ و ١٢٩

وجل : (إنّمَا يأكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً) . وهذا أيضاً مجاز آخر [١] » .

و بعد أن يورد أمثلة للأكل على الحقيقة ، يورد أمثلة للأكل على المجاز ، من نحو قوله تعالى: (أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يأكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتاً) ، وقول الشاعر :

سألتني عن أناسٍ أكلوا　　　أكل الدهرُ عليهم وشرب

ثم يقول : « فهذا كله مختلف ، وهذا كله مجاز [٢] » .

وفى باب آخر يورد استعمالات فعل ذاق المجازية ، من نحو قوله تعالى (ذُقْ إنّكَ أنْتَ العزيزُ الكريمُ) ، وقول السيد إذا بالغ فى عقوبة عبده : ذق ، وكيف ذقته ، وكيف وجدت طعمه . وقول الشاعر :

و إن الله ذاق حلوم قيس　　　فلما ذاق خفتها قلاها

رآها لا تُطيع لها أميراً　　　فخلّاها تَرَدَّدُ فى خلاها

ثم يقول :

وللقوم إقدام على الكلام ثقة بفهم أصحابهم عنهم ، وهذه أيضاً فضيلة أخرى . وكما جوزوا لقولهم أكل و إنما عض ، وأكل و إنما أفنى ، وأكل و إنما أحاله ، وأكل و إنما أبطل عينه ، جوزوا أيضاً ان يقولوا ذقت ماليس يطعم ، ثم قالوا طعمت لغير الطعام » .

---

(١) الحيوان جـ ٥ ص ٩ و ١٠

(٢) الحيوان جـ ٥ ص ١٠

ولعل قوله « ثقة بفهم السامع » يعنى ما يسميه المتأخرون « قرينة دالة على المقصود » .

ويعرض قول المتكلمين ان الحرارة تورث اليبس ، وكيف لا يصح ، لأن الحرارة إنما ينبغى ان تورث السخونة وتولد ما يشاكلها . ثم يقول : « إلا أن يذهبوا إلى سبيل المجاز ... فان ذهبوا إلى غير المجاز ، فقد أخطأوا(١) » .

وقد يؤيد هذا قوله فى معرض الحديث عن الأمانى وذمها : « وقيل لزيد : أيسرك أن عندك قنينة شراب ؟ قال : يا ابن آدم ، من يسره دخول النار ، على المجاز ؟! (٢) » .

وكيفما كان الأمر ، فيتضح من الأمثلة السابقة أن معنى المجاز عنده استعمال اللفظ فى غير ما وضع له ، توسعاً من أهل اللغة وثقة من القائل بفهم السامع ، وأنه كان عاما على نحو يشبه المجاز الاصطلاحى المتأخر .

***

وعرف المجاز العقلى لعهد الجاحظ ، وان لم تعرف تسميته . فقد أعطانا بضعة أمثلة له ، ووقف عندها يرد على إنكار المنكرين لهذا اللون البيانى . فالحسن سمع رجلا يقول : طلع سهيل ، وبرد الليل ، فكره ذلك . وقال إن

---

(١) الحيوان ﺟ ٥ ص ١٣
(٢) الحيوان ﺟ ٥ ص ٦٢

سهيلا لم يأت بحر ولا ببرد قط . وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحاب ما أخلقها للمطر . لكن الجاحظ لا يقر إنكار المنكر ولا يوافق على كراهية الكاره ، وإنما يقول بعد الأول « ولهذا الكلام مجاز ومذهب » كما يقول بعد الثانى « وهذا كلام مجازه قائم » ، وبعد مثال آخر : « وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل »[١] .

ويحتج لهذا الاستعمال بقوله :

« وقد جاز فى كلام العرب أن يقولوا جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ، وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

ومن هذا يتبين أن بعض الناس لذلك العهد قد أنكر استعمال هذا اللون من الكلام ، وكان أصل إنكارهم المعنى الدينى الذى يدعو إلى إسناد جميع الأعمال إلى الله تعالى : ولكن الجاحظ قد فهم هذا الاستعمال وشرحه ، واحتج له بشواهد فى اللغة ، وقال إن مجازه عند الناس سهل .

لكن كلمة المجاز هنا لا تعنى ، كما هو واضح فى الأمثلة السابقة ، مقابل الحقيقة ، وإنما تعنى التأويل أو التفسير أو المعنى .

كما عرف الجاحظ ما سمى بعد بالمجاز اللغوى ، وعلل له حين فسر قول الله تعالى : (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ) ، وقال إن العسل ليس بشراب

---

(١) الحيوان ج ١ ص ١٦٦

و إنما يحول بالماء شراباً أو بالماء نبيذا ، فسماه شراباً ، إذكان مما يجيء منه الشراب. فقرر بهذا أن تسمية الشيء باعتبار ماسيؤول إليه جائزة فى البيان العربى(١). كما ذكر عادة العرب وصنيعهم فى الشيء إذا طالت صحبته لغيره وملابسته له ، فيطلقون عليه اسم الغير . فهم سموا رجيع الانسان غائطاً ، والغيطان البيوت التى كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة ، ومنه العذرة ، و إنما العذرة الفناء والأفنية هى العذرات . ولكن لما طال إلقاؤهم النجو فى أفنيتهم ، سميت تلك الأشياء التى رموا بها باسم المكان الذى رميت فيه . كما أورد أمثلة غير هذه وقال عنها : إنها من قبيل الكناية ، وترك التصريح بأشياء لا يحسن ذكرها .

---

(١) الحيوان جـ ٥ ص ١٢٨

٣ ـ الاستعارة

الاستعارة عند الجاحظ هى تسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه . فتراه يتحدث عن الألفاظ المستعملة فى غير ما وضعت له ، ويقول فى قول الله عز وجل : (هذا نُزُلهم يومَ الدين) إن العذاب لا يكون نزلا ، ولكنه لما أقام العذاب لهم فى موضع النعيم لغيرهم سمى باسمه . فقد قال الله تعالى : (ولهم رزقُهم فيها بُكرةً وعشياً) ، وليس فى الجنة بكرة ولا عشى . ولكنه مقدار البكر والعشيات ، وعلى هذا قول الله عز وجل (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم) والخزنة الحفظة ، وجهنم لا يضيع منها شىء فيحفظ ، ولا يختار دخولها إنسان فيمنع عنها . ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن ، سميت به [١] .

ثم علق على قول الشاعر :

وطفقت سحابة تغشاها تبكى على أعراضها عيناها

بقوله : « وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه .

ويقول إن الظبية اسم للفرج من الحافر والجمع الظَّبيات ، وقد استعاره أبو الأخزر فجعله للخف [٢] .

---

(١) البيان ج ١ ص ١١٦ (٢) الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

كما أن المنسم للبعير، ولكن ربما استعاروه لغيره[١].

ولكن فعل استعار أتى كذلك بمعنى اتخذ واستعمل، حين قال إن الفرج كناية عن قبل المرأة، وأما الاسم الأول فهو حر وأصله حرح . . . ولكنه قد يستعار[٢].

على أن الجاحظ قد يستعمل عبارات (على المثل) و (على الاشتقاق) و (على التشبيه) أو (فى معنى التشبيه والاشتقاق) بعد إيراد أمثلة الاستعارة؛ نحو قولهم: إن النار تأكل الدهن الذى فى المصباح أو تشربه[٣].

وكثيراً ما استعمل لفظ التشبيه للدلالة على معنى الاستعارة. فالأنثى من ولد النعامة يقال لها قلوص على التشبيه بالنعام من الابل[٤]، وأبو الشمقمق جعل الأير أصم على التشبيه[٥]، والطير يسمى صوتها[٦] منطقاً على التشبيه بالناس، والخرطوم للفيل ولكن خطم الكلب والخنزير والذئب يسمى خرطوماً على التشبيه[٧]، ونحو هذا كثير[٨].

وله كلام أشبه بالتحليل للاستعارة أو ما سمى بعد إجراء الاستعارة فى نحو قوله: « شبهوا الحقد الكامن فى القلب الذى يسرى ضرره وتدب

---

(١) الحيوان ج ٤ ص ١١٢ (٢) الحيوان ج ٢ ص ١٠٢
(٣) الحيوان ج ٣ ص ٣٤ و ج ٥ ص ٩
(٤) الحيوان ج ٤ ص ١١٦ (٥) الحيوان ٤ ص ١٣١
(٦) الحيوان ج ٧ ص ١٨ (٧) الحيوان ج ٢ ص ٥٠
(٨) الحيوان ج ٤ ص ١٠١ و ١١١ و ١١٣ و ج ٧ ص ٧٧ و ٧٨

عقار به بالضب ، فسموا ذلك الحقد ضبا »[١] .

وقد يسميها كذلك مجازاً ومجازاً بعيداً ، ومن الأول تعليقه على قول الله تعالى (إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) بأنه مجاز[٢] ، ومن الثانى قوله تعليقاً على قولهم : لفظت الشاة العلف إذا لم تأكل منه : « إن ترك الشاة للعلف ليس بلفظ له إلا أن يحملوا ذلك ونحوه على المجازات البعيدة[٣] » .

و إذاً فالجاحظ قد عرف الاستعارة وتسميتها واعتبارها مجازاً . أما استعمال لفظ على التشبيه ونحوه فى هذا المقام فليس غريباً ، إذ الاستعارة مجاز علاقته المشابهة فى قول المتأخرين ، و بعضهم يجعل التشبيه استعارة ، وكلمة التشبيه ترد عندهم فى اجراء الاستعارة ، كما أن التمثيل يتصل بالتشبيه .

وللجاحظ بعد ذلك كتاب تحدث عنه فقال :

« ولى كتاب جمعت فيه آيات من القرآن ليعرف بها ما بين الايجاز والحذف و بين الزوائد والفضول والاستعارات » . فلعل هذا الكتاب لو وصل إلينا لكشف عن حقيقة فهم القوم للاستعارة ، أكثر من كشف هذه العبارات التى وردت عرضا فى أثناء حديث الجاحظ عن موضوعات شتى .

---

(١) الحيوان ج ٦ ص ٢٠

(٢) الحيوان جـ ٥ ص ٩ و ١٠

(٣) الحيوان ج ٢ ص ٥٤

٤ - المثــل

أتى المثل بمعنى المجاز أو مقابل الحقيقة ، وقد سبق نحو هذا فى باب الاستعارة ، وذلك كقوله عن نار الحرب إنها نار ، على طريق المثل لا على طريق الحقيقة [١] .

كما كان بمعنى الأصل فى معنى من المعانى ، فيشبه به غيره المشارك له فى هذا المعنى ؛ كقوله إن السمكة هى الأصل فى السباحة ، وهى المثل وإليها جميع النسبة [٢] . وكأن يتحدث عن المثل والفرع المأخوذ من الأصل فى معرض الحديث عن تسمية المطلب وجها [٣] .

وكان ضرب المثل بمعنى التشبيه فى تعليقه على قول الله تعالى (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ . . .) ؛ إذا أورد زعم القائلين بأن هذا المثل لا يجوز أن يضرب ، وقد مر فى باب التشبيه . وفى قوله وقد أكثروا فى ضرب المثل ببعد ما بين الجنسين ، وذكر تشبيه عبد الرحمن بن الحكم آل مهجوه من قريش بآل الفيل من ولد الأتان [٤] . وكقوله : وقالوا فى المثل ضربه ضربة ، فكأنما أخطأه ؛ لسرعة

---

(١) الحيوان ج ٥ ص ٧٤ (٢) الحيوان ج ٥ ص ١٤

(٣) هامش الكامل ج ٢ ص ٢٢٠ و ٢٢١

(٤) الحيوان ج ٧ ص ٧٣

المر وانعدام الصوت [١] .

واستعمل المثل كثيرا بمعنى القول السائر ، كقوله : من أمثال العامة أحمق من معلم كتاب [٢] .

وأتى بمعنى ما ورد فى كتاب كليلة ودمنة على لسان الحيوان من مواعظ وحكم فى قوله : « وما قرأه الناس من الأمثال فى شأن الفيل التى وجدوها فى كتاب كليلة ودمنة » .

---

(١) الحيوان ج ٦ ص ١٤٩ (٢) البيان ج ١ ص ١٧٣

٥ ـ الكناية

أتت الكناية عند الجاحظ بمعنى عام ، وهو التعبير عن الشيء تلميحاً لا تصريحاً .

ففى قول الهندى : « ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الافصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الافصاح أوعر طريقة . وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرك وأحق بالنظر » . وفى قوله : « رب كناية تربى على إفصاح [1] » ، ترى أن الكناية تقابل الافصاح ، وأنهما مع الاهمال أو السكوت أمور يدعو إليها المقام ، وتلزم مراعاتها فى باب البلاغة ، ويجب تحرى المقام الملائم لكل منها .

ويردد هذه الدعوة ذاتها حين يروى بيت داود بن جرير :

يرمونَ بالخُطَبِ الطِّوال وتارةً   وحْيَ المَلاَحِظِ خيفةَ الرُّقَباء

فيقول : « فذكر المبسوط فى موضعه ، والمحذوف فى موضعه ، والموجز والكناية [2] .... »

وتراه — كما سبق — بعد أن يورد أمثلة المجاز اللغوى ، من تسمية الشيء بملابسه كالمزادة بالراوية ، ورجيع الانسان بالغائط وما إلى ذلك ـ يقول : « فكله كناية » .

---

(١) البيان ج ٢ ص ٢٠   (٢) البيان ج ١ ص ٥١

ويقول : « ومن ذلك قولهم فى البغى المكتسبة بالفجور قحبة ، وإنما القحاب السعال . . . وكانوا إذا أرادوا الكناية عمن زنت وتكسبت بالزنا ، قالوا : قحبت أى سعلت ، كناية . . . وكذلك كانت كنايتهم فى انكشاف عورة الرجل ، فيقال كشف علينا متاعه . . . وشواره . . . وكلمات للنبى صلى الله عليه وسلم لم يتقدمه فيهن أحد ، ومن ذلك قوله : « كل الصيد فى جوف الفرا » ، وقوله : لا يلسع المؤمن من جحر مرتين . . . ويقال فلان يقرأ بوجه كذا . . . »

وكقوله : « قال شريح : الحدة كناية عن الجهل . قال أبو عبيدة : العارضة كناية عن البذاء . وإذا قالوا : فلان مقتصد ، فتلك كناية عن البخل ، وإذا قالوا للعامل مستقص ، فتلك كناية عن الجور [1] » .

وقوله : « ويقال لموضع الغائط الخلاء والمذهب والمخرج والكنيف والمرحاض والمرفق ، وكل ذلك كناية واشتقاق ، وهذا أيضاً يدلك على شدة هربهم من الدناءة والفسولة والفحش والقذع [2] » .

فتراه قد استعمل لفظ الكناية استعمالا عاما ، يشمل ما يسمى بالمجاز اللغوى والمجاز المركب والاستعارة ، كما يشمل الكناية الاصطلاحية ، بل دخل فيه كذلك استعمال الكلمات قصد التصغير والتحقير [3] .

ولكن يلاحظ فيها غالبا وضع لفظ مكان آخر ، هربا من التصريح بما

---

(١) البيان جـ ١ ص ١٨٠ (٢) الحيوان جـ ٥ ص ٩١

(٣) الحيوان جـ ١ ص ١٦٣ و ١٦٤

لا يجمل التصريح به من ألفاظ « الدناءة والفسولة والفحش والقدح » ، كالبخل والجهل والظلم والفجور وأسماء العورات .

وسمى الكناية اشتقاقا كذلك كما مر .

ووردت كلمة التورية عنده فى قوله : « وإنما سمى الله عز وجل الكافر فى باطنه ، المورى بالايمان والمستتر بخلاف ما يظهر ، بالمنافق على النافقاء والقاصعاء ، وعلى تدبير اليربوع فى التورية بشىء عن شىء » .

فكأن التورية عنده بمعنى الاحتيال أو التغطية أو التعمية بشىء لإخفاء غيره ، إذ سمى ما يفعله اليربوع حين يجمع التراب على باب جحره تورية ، ومنه أتت كلمة المنافق بمعناها الاسلامى [1] .

كما وردت كلمة التعريض فى قوله : « ويقال للزطى الذى يلعب بالحدث من أولاد الناس هو يأكل رؤوس الحملان ، لمكان ألية الحمل ولأنه أجزل وأرطب ، ولم يقولوا فى الكناية والتعريض هو يأكل لحوم العرضان » ، ومن هذا المقال يبدو أن التعريض يقصد به إلى ستر الذم .

---

(١) الحيوان جـ ٥ ص ٨٦

الفصل الثالث

الايجاز

عنى العرب فى الجاهلية بالايجاز واعتبروه البلاغة الحقة ، وأتى الاسلام فامتدحه الكتاب وتفننوا فيه ، حتى ود بعضهم لو أن الكلام كله توقيعات. وأغلب الظن أن الأمية فى الجاهلية والاعتماد على الذاكرة كان من دواعيه ، كما اقتضاه تدوين الرسائل فى الاسلام ، إذ يتطلب قراطيس كان الحصول عليها شاقا . يروى أن عمر بن عبد العزيز كان إذا طلب منه كتابة قراطيس ، أمرهم بالايجاز والاكتفاء بما عندهم منها ، ففى الايجاز بلاغة وقصد . ويضاف إلى هذا انقطاع طائفة من الأدباء للكتابة ، وما يؤدى إليه الانقطاع والتخصص من التفنن بل الاسراف فيه أحيانا .

أما الجاحظ فقد ورد الايجاز عنده بمعنى حذف الفضول . واحترز مما قد تدل هذه العبارة عليه من أن الايجاز يعنى قلة اللفظ على الاطلاق ، فنص على أنه لا يعنى الاختصار ولا قلة عدد الحروف واللفظ ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار ، فقد أوجز . فالحذف لما لا يكون سببا فى إغلاق المعنى وما يحدث التكرار بذكره ، والخطل فى إيراد ما لا حاجة إليه لوضوحه .

وشرح هذا فى صدر الجزء السادس من كتاب الحيوان ، فقال بعد أن عدد ما ذكره من أنواع الحيوان والطيور والحشرات : « وقد بقيت أبواب توجب الاطالة وتخرج إلى الاطناب ، وليست باطالة ما لم تجاوز مقدار الحاجة . . . وإنما الألفاظ على أقدار المعانى ، فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها ، وشريفها لشريفها ، وسخيفها لسخيفها ، والمعانى المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعانى المشتركة والجهات الملتبسة . ولو جهد جميع أهل البلاغة أن يخبروا من دونهم عن هذه المعانى بكلام وجيز ، يغنى عن التفسير باللسان والاشارة باليد والرأس ، لما قدروا عليه . وقد قال الأول « إذا لم يكن ما تريد فرد ما يكون » . وليس ينبغى أن يسوم اللغات مما ليس فى طاقتها ، ويسوم النفس ما ليس فى جبلتها . ولذلك صار يحتاج صاحب كتاب المنطق إلى أن يفسره ممن طلب من قبله علم المنطق ، وإن كان المتعلم رقيق اللسان حسن البيان ، إلا أنى لا أشك على حال أن النفوس إذا كانت إلى الطرائف أحن وبالنوادر أشغف ، وإلى قصار الأحاديث أميل وبها أصب ، أنها خليقة لاستثقال الكثير وإن استحقت تلك المعانى الكثيرة ، وإن كان ذلك الطويل أنفع ، وذلك الكثير أود[1] » .

فالجاحظ قد رادف بين الاطناب والاطالة ، وجعلهما مقابلين للايجاز

---

(١) الحيوان ج ٦ ص ٣

ثم فسر الايجاز تفسيراً واسعاً بمعنى أداء حاجة المعنى ، سواء أكان ذلك الأداء فى ألفاظ كثيرة أم قليلة . ثم قرر أن هناك معانى مشتركة مبهمة تحتاج الى ايضاح واسهاب فى التعبير عنها ، كما أن هناك معانى مفردة يكفيها قليل اللفظ . وهو يعتذر عن البسط والاسهاب ، ويقول انهما أمر لا مناص منه ولا سبيل الى ما سوى الرضا عنه ، ثم يتحدث عن اللغة وطبيعتها ، والنفس وجبلتها ، حديثا يناسب ما عهد فيه من الربط بين الأدب وحال النفس ، مما أشير اليه من قبل .

والاسهاب إنما يكون خطلا وهذراً حين يفضل عن مقدار الاحتمال ويدعو الى الملال ، اذ للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية [1] .

وليس التكرار عيا ما دام لحكمة ، كتقرير المعنى أو خطاب الغبى أو الساهى ، كما أن ترداد الألفاظ ليس بعى ما لم يجاوز مقدار الحاجة ويخرج الى العبث . وهذا القرآن قد ردد قصة موسى وهود وهرون وشعيب وابراهيم ولوط وعاد وثمود ، كما ردد ذكر الجنة والنار وغيرهما ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبى غافل أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب .

وضبط الحاجة إلى الترداد والتكرار غير ممكن ، لأنه أمر يتصل بأقدار

---

(١) البيان ج ١ ص ٨٢

المستمعين ومن يحضر الحديث من العامة والخاصة .

***

وتحدث الجاحظ عن هذا النوع من التعبير الجامع لكثير المعنى فى قليل اللفظ فى مواضع عدة . وكان يسميه إيجازاً وحذف الفضول وإيجازاً محذوفا . ومن هذا قال : « وأشياء تضاف إلى الايجاز وحذف الفضول . قال بعضهم ووصف كلابا فى حال شدها وعدوها وفى سرعة رفع قوائمها ووضعها ، فقال : كأنها ترفع ما لم يوضع . ووصف آخر ناقة بالنشاط والقوة ، فقال : ألا إنها صناع . وقال الآخر : الليل أخفى ، والنهار أفضح . ووصف الآخر فرساً فقال : فى كفه معطية منوع » .

فجميع هذه من أمثلة الايجاز الجامع لمعان كثيرة فى عبارة مقتصدة بليغة . وبعد أن أورد أبياتا من الشعر قال : « ومن الايجاز المحذوف قول الراجز ووصف سهمه حين رمى عيرا كيف صرعه وهو يقول : « حتى نجا من جوفه وما نجا »[1] .

وبعد إيراد كثير من الأمثلة يقول :

« وقد ذكرنا أبياتا تضاف إلى الإيجاز وقلة الفضول ، ولى كتاب جمعت فيه آياً من القرآن لتعرف بها ما بين الايجاز والحذف وبين الزوائد

(١) الحيوان ج ٣ ص ٢٢ — ص ٢٣

والفضول والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها فى الايجاز والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة . فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة: (لا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنْزَفُون) وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا . وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال : (لا مقطوعة ولا ممنوعة) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعانى (١) .

وفى هذا النص ترى الجاحظ قد ألف كتابا عرض فيه للايجاز وفصل معناه فى القرآن .

وتحدث عن الايجاز كذلك فى قوله : « ومن الكلام كلام يذهب السامع منه إلى معانى أهله والى قصد صاحبه ، كقول الله تبارك وتعالى : (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَاهُمْ بِسُكَارَى) . وقال : (لايَمُوتُ فيها ولا يَحْيَى) . وقال : (وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَماهُوَ بِمَيِّتٍ (٢)). وبعد أن أورد أمثلة كثيرة واستطرد طويلا قال : « قال الله تبارك وتعالى : (ولكم فى القصاص حياة) . وقال بعض الحكماء : قتل البعض احياء للجميع » .

وقد عنى البلاغيون من بعد بالموازنة بين هاتين الكلمتين وذكر ما فى الأولى من مزايا بلاغية .

وتحدث كذلك عما سمى أخيراً الايجاز بالحذف فى باب سماه :

---

(١) الحيوان جـ ٣ ص ٢٧ (٢) البيان جـ ٢ ص ٢٠١

« باب الكلام المحذوف » ، وأتى بكثير من أمثلته فى الحديث وكلام الصحابة وغيرهم . ومن هذا ما روى من أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ان الأنصار فضلونا بأنهم آووا ونصروا وفعلوا وفعلوا ، قال النبى (ص) أتعرفون ذاك لهم ؟ قالوا : نعم ! قال : فان ذاك ! وعقب الجاحظ على هذا بقوله : « ليس فى الحديث غير هذا ، يريد أن ذاك شكر ومكافأة » .

وقوله : (وكلّم رجل من قيس عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله ، فى حاجة ، وجعل يمتُّ بقرابة ؛ فقال عمر : و إن ذاك . ثم ذكر حاجته ، فقال: لعل ذاك ! لم يزده على أن قال : فان ذاك ولعل ذاك ! فان ذاك كما قلت ، ولعل حاجتك أن تقضى) .

وقوله : « وقال الأسود لعبدالله بن الزبير : لاحملت ناقة حملتنى اليك ! قال ابن الزبير: إن وراكبها[1]) .

ويتبين من هذا أن الجاحظ قد عرف الإيجاز وكثيرا من أنواعه ، وإن لم يعرف جميع أقسامه المتأخرة .

---

(١) البيان جـ ٢ ص ١٩٨ — ٢٠١

الفصل الرابع

البديع : معناه ، مسائله

١ – معنى البديع

أطلق الرواة اسم البديع لذلك العهد اطلاقا عاما على المستحدث من الألوان البلاغية ، من تشبيه ومجاز وما اليهما من أنواع التفنن فى الأداء والمحسنات البديعية . وهم يرمون بهذه التسمية إلى أنه شىء جديد مبتدع .

فترى الجاحظ بعد أن يورد قول الشاعر :

هم ساعد الدهر الذى يتقى به   وما خير كف لاتنوء بساعد

يقول : « قوله (هم ساعد الدهر) إنما هو مثل ، وهو الذى يسميه الرواة البديع . وقد قال الراعى :

هم كاهل الدهر الذى يتقى به   ومنكبه ان كان للدهر منكب

وقد جاء فى الحديث : «موسى الله أحد ، وساعدالله أشد» . والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان . والراعى كثير البديع فى شعره ، و بشار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع »[1] .

---

(١) البيان ج ٢ ص ٢٤٢

فهو هنا يسمى المجاز مثلا ، وينسب تسمية البديع إلى الرواة ، ثم يطلق كلمة البديع على ما يصطنعه الشعراء من نحو هذا النوع من أنواع التصوير. كما يقول فى موضع آخر، متحدثا عن كلثوم بن عمرو العتابى : «وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين ؛ كنحو منصور النمرى ، ومسلم بن الوليد الأنصارى ، وأشباههما . وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة »[١]

فيقرر أن بشاراً زعيم البديعيين ، وأن العتابى نقل البديع نقلة جديدة ، وكان له فيه طابع خاص ومميزات ، وحذا حذوه المتكلفون للبديع من بعده .

وأحيانا يقول : من البديع كذا ، ثم يورد قطعة شعرية فيها استعارة أو استعارات . وقد يصفه بالحمد والاستحسان ، فيقول البديع المحمود والبديع المستحسن[٢] .

(١) البيان ، ج ١ ص ٥٤ — ٥٥ (٢) الحيوان ، ج ٣ ص ١٧

ب ـ مسائله

١ ـ السجع

« قيل يارسول الله ، أرأيت من لاشرب ولا أكل، ولاصاح فاستهل ، أليس مثل ذلك يَطُلُ ؟ فقال رسول الله (ص): أسجع كسجع الجاهلية !»[1] وفى رواية أخرى سبق إيرادها : أسجع كسجع الكهان .

فكهان الجاهلية كانوا يستعملون السجع للتأثير فى النفوس ، والحكم بين الناس . ويظهر أنه لم يكن يشاركهم فيه عامة الجاهليين، بدليل مايقوله عبد الصمد بن المفضل بن عيسى الرقاشي فى معرض الاحتجاج للسجع : « وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عُشره ، ولا ضاع من الموزون عشره »

ولو صح هذا لكان هناك نثران أدبيان جاهليان : نثر الكهان ويمتاز بالسجع ، ونثر غيرهم المطلق .

وكيفما كان الأمر فقد أثر هذا الحديث فى تاريخ السجع ، فكرهه كثيرون ، حتى رأينا معاوية حين يقول له ابن الزبير : « إنى أناديك ولا أناجيك ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تقدم ، وتفكر قبل أن

---

(١) البيان ، ج ١ ص ١٩٤

تندم ، فان النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم » — رأيناه حين يقول له هذا يضحك ، ويجيب : « تعلمت أبا بكر السجاعة عند الكبر ! إن فى دون ماسجعت به على أخيك ما يكفيك ! »(١) .

وكان يملى على رجل كتابا ، فقال فيه : « لهو أهون على من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة . ثم قال امح من الحرة وا كتب من الكلاب . كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع »(٢) .

بل لقد فهم جماعة من حديث رسول الله معنى النهى ، فقالوا بتحريمه . ولكن غيرهم خالفوهم فأباحوه ، واحتجوا لرأيهم بأن رسول الله قد سمع الشعر من القصيد والرجز واستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحاب رسول الله قد قالوا شعراً قليلا كان ذلك أو كثيراً ، وسمعوا واستنشدوا . والسجع والمزدوج دون القصيد والرجز . فكيف يحل ما هو أكثر ، ويحرم ما هو أقل ! .

وكان عبد الصمد الرقاشى من أنصار السجع ، الذين يؤثرونه على النثر المطلق ، فقيل له : « لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت » . وقال إنما

---

(١) البيان ، ج ١ ص ٢٠٠ (٢) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٤٢٧

كره الرسول السجع لما قد يقصد إليه صاحبه من إبطال لحق وتشادق فى كلامه

فجماعة يحرمون السجع استناداً إلى ظاهر قول الرسول السابق، وجماعة يحلونه و يؤولون الحديث . ولكن هناك جماعة تتوسط فتقول إنه لا بأس من السجع ما دام لم يطل ، وما دامت القوافى غير مجتلبة ولا متكلفة(١) .

و يرى الجاحظ أن الذى كره الأسجاع بعينها ، و إن كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كانوا يدعون الكشف عن الغيب وأن مع كل واحد منهم رئياً من الجن يلهمه القول - كانوا يتكهنون و يحكمون بالأسجاع ، فوقع النهى فى ذلك لقرب عهد العرب بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم .

وليس من شك فى أن معارضة المتنبئين للقرآن ، واصطناعهم السجع فى هذه المعارضة - كان له أثر كبير فى كراهية النبى والخلفاء له ، وخشيتهم الفتنة به . وقد روت كتب السيرة نماذج من سجع مسيلمة وطليحة وسجاح وغيرهم ، قصد رواتها فى أغلب الظن إلى تسخيف أولئك المتنبئين .

ومهما يكن من شىء ، فقد رأينا الخطباء يتكلمون عند الخلفاء الراشدين بخطب مسجوعة ثم لا ينهون عنها ؛ ورأينا كثيراً من القصاص سجاعين كالفضل بن عيسى الرقاشى ، وعبد الصمد الفضل ، وأبو العباس القاسم بن يحيى ، ولا ينكر الناس سجعهم ، بل يجلس إليهم عامة الفقهاء و يستمعون إليهم ولا يعترضون عليهم(٢) .

---

(١) البيان ، جـ ١ ص ١٩٤ (٢) البيان ، جـ ١ ص ١٩٥

وجد السجع وعقد له الجاحظ أبوابا أورد فيها نماذج كثيرة منه كما عقد لمزدوج الكلام بابا صدره بقول رسول الله (ص) : « اللهم علمه الكتاب والحساب ، وقه العذاب[1] »

وذكر الجاحظ أن العرب ألفوا استعمال السجع فى المنافرة والمفاخرة ، ولم يعبه إلا عاب به غيره : أى بالتكلف الذى يفسد القول ، و يفقده الجمال .

٢ ـ الاقتباس

عرف الاقتباس الصحابة والتابعين ؛ فكانوا يسمون الخطبة التى لم توشح بالقرآن الكريم بتراء . ومن هذا ماروى عن عمران بن حطان ، اذ قال : « خطبت عند زياد خطبة ظننت أنى لم أقصر فيها عن غاية ولم أدع لطاعن علة ، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخاً يقول : هذا الفتى أخطب العرب ، لو كان فى خطبته شىء من القرآن![2] »

٣ ـ أسلوب الحكيم

سمى الجاحظ ما أطلق عليه اسم أسلوب الحكيم لغزاً فى الجواب ، وعقد له بابا فى كتاب البيان والتبيين أورد فيه كثيرا من الأمثلة كقوله : « كان الحطيئة يرعى غنما وفى يده عصا ، فمر به رجل فقال : يا راعى الغنم ماعندك ؟ قال : عجراء من سلم — يعنى عصا — قال : إنى ضيف ، قال:

---

(١) البيان ، جـ ٢ ص ٩٦ (٢) البيان ، جـ ٢ ص ١٩

للضيفان أعددتها » . وكقوله : قال الحجاج لرجل من الخوارج : أجمعت القرآن ؟ قال : أمتفرقا كان فأجمعه ؟ قال : أتقرأ ظاهراً ؟ قال : بل أقرأه وأنا أنظر إليه ! قال : أتحفظه ؟ قال : أخشيت فراره فأحفظه ! (١) .

ونحو هذا ما سماه محاسن الجواب ؛ كقول سعيد بن مرة حين سأله معاوية : أنت سعيد ؟! أمير المؤمنين سعيد ، وأنا ابن مرة ! (٢) .

وكذلك ما أتى فى باب كلام الموسوسين ؛ كقول واحد لصاحب قدم عليه من فارس : قد كنت عند أمير المؤمنين فأى شىء ولاك ؟ قال : ولانى قفاه (٣) .

وهكذا نرى أن هذا النوع من المداورة فى الجواب أو اللغز فيه أو أسلوب الحكيم ، كان يستعمل لغرض التظرف أو التخلص من إحراج السائل أو تقديم الأهم . ويظهر هذا الغرض الأخير فى قوله : « سأل رجل بلالا ، مولى أبى بكر رضى الله عنه ، وقد أقبل من الحلبة ، فقال له : من سبق ؟ قال سبق المقربون . قال : إنما أسألك عن الخيل ! ؟ قال : وأنا أجيبك عن الخير ! فترك بلالا جواب لفظه إلى خبر هو أنفع له (٤) » .

---

(١) البيان ، جـ ٢ ص ١١١-١١٨ (٢) المحاسن والاضداد ، ص ٢١

(٣) البيان ، جـ ٣ ص ٢١٤-٢٢٤ (٤) البيان ، جـ ٢ ص ٢٠١

٤ — المذهب الكلامى

ذكره ابن المعتز فى الباب الخامس من البديع، وقال: إن الجاحظ سماه المذهب الكلامى وقال: « وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن منه شيئاً، وهو ينسب إلى التكلف، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا! ».

ثم أورد له أمثلة من كلام المتقدمين والمتأخرين تدل على أن معناه التلاعب بالألفاظ على طريقة المتكلمين، مثل قول أبى نواس:

إن هذا يرى — ولا رأى للأحمق — أنى أعده إنسانا
ذاك فى الظن عنده وهو عندى كالذى لم يكن وإن كان كانا

وقول الطائى:

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك إلا بالرضا

ثم ذكر أمثلة للمعيب منه تقوم كلها على التكلف فى التشبيه والاستعارة، والتصنع فى الأداء[1].

أما المتأخرون فأتى المذهب الكلامى عندهم بمعنى آخر، وعرفوه بإيراد حجة المطلوب على طريقة أهل الكلام، وهو أن يكون بعد تسليم المقدمات مقدمة مستلزمة للمطلوب. ومثلوا له بقول الله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا). وقال التهانوى: «وزعم الجاحظ أن المذهب

---

(١) البديع لابن المعتز، نشر كراتشكوفسكى، ص ٥٣ – ٥٦

المذهب الكلامي لم يجيء فى القرآن ، فكأنه أراد به ما يكون برهانا . والآية ليست كذلك لأن تعدد الآلهة ليس قطعي الاستلزام للفساد ، بل إنما هو من المشهودات الصادقة (١) .

والذى يتأمل فى الأمثلة الواردة عند ابن المعتز ، يرى الفرق الكبير بينها وبين الآية التى استشهد بها التهانوى على بطلان زعم الجاحظ ، وأن معنى المذهب الكلامي عند الجاحظ وابن المعتز كان غيره عند المتأخرين .

وقد سخر الجاحظ من الذين يتكلفون أداء الكلام تشبها بالمتكلمين فيحيلون ويأتون بالغريب من التراكيب (٢) .

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ، ط كلكتة ، جـ ١ ص ٥١١

(٢) الحيوان ، جـ ٥ ص ١٠

خاتمـــــة

الجاحظ فى تاريخ البلاغة

يعد الجاحظ فى رأيى مؤسس علم البلاغة العربية . ذلك بأنه قد جمع مايتصل به من كلام سابقيه ومعاصريه ، وشرحه ، وأضاف إليه .

وقد زالت بعض الموضوعات التى أثارها فى هذا الباب كمسائل الخطابة ، وعدل كثير مما عرض له تعديلا كليا أو جزئيا . لكنه فتح بابا لم يسبق فى أغلب الظن به ، وظهر أثر كتاباته واضحا فى تاريخ هذا العلم ، وظلت المسائل التى تحدث عنها والأمثلة التى أوردها موضع البحث والشرح .

وقد رأينا فيما سبق أن معانى الفصاحة والبيان والبلاغة ، على ماصورها الجاحظ باختلاطها واتصالها ، بقيت ولم تزل ، وأنه قد عرف كثيرا من ألوان البيان .

ومما جاء عنده، وتعهده من بعده بالنظر والبحث، الخطابة وصلتها بالبلاغة. فابن قتيبة لم ير بأساً فى أن ينهج نهج الجاحظ ، وأن يجعلها قوام البيان عنده . ولم يغفلها قدامة . وعرض لها أبو هلال العسكرى فى الفصل الأول من كتابه الصناعتين . وذكرها ابن رشيق فى كتابه العمدة . وزادت عناية ابن سنان بها ؛ فافتتح كتابه «سر الفصاحة» بالحديث عن الأصوات وما يتصل بها ، و بالغ فى معالجة مسائل النطق وأداته .

ولعل أول من انبرى لمناقشة الجاحظ فى هذا، وتسفيه رأيه، عبدالقاهر الجرجانى ؛ فقد سخف من يرى البلاغة فى الإشارة بالرأس والعين ، وفى

جهارة الصوت والبعد عن اللكنة والحبسة وما إلى ذلك .

ولعلها أخذت منذئذ تتضاءل فى ميدان البلاغة حتى انفصلت عنها أخيرا ، وذيلت فى اقتضاب علم المنطق .

أما إعجاز القرآن فقد ألفت فيه كتب كثيرة ، ورآه عبد القاهر وابن سنان الغاية من علم البلاغة .

والنظم الذى أشار اليه الجاحظ فى كتاب الحيوان ، وألف فيه كتابا لم يعثر عليه ، قد ألفت فيه كتب كثيرة . فمحمد بن يزيد الواسطى المعتزلى ألف كتاب (إعجاز القرآن فى نظمه) . وابن على الإخشيد له كتاب نظم القرآن . وكذلك لابى على الحسن بن على بن نصر [1] . وكان موضوعه أهم ما عالج عبد القاهر فى كتابه دلائل الإعجاز ، يبدأ فيه ويعيد ، و يضطرب فى تفسيره .

أما موضوع اللفظ والمعنى فقد كان أهم المسائل التى دار حولها جدل طويل . فابن قتيبة ، الذى فتن بمعارضة الجاحظ ، من المحتمل أنه قد قصد إلى مخالفة رأيه : أن البلاغة فى اللفظ قبل كل شىء ، حين قال فى معرض الحديث عن الشعر إنه على أربعة أضرب : جيد اللفظ فقط ، وجيد المعنى فقط ، وجيد اللفظ والمعنى معاً ، ومتأخر الاثنين جميعا كأنه يشير إلى أنها ليست فى اللفظ وحده [2] .

وأبو هلال العسكرى يؤيد مذهب الجاحظ ، وان اضطرب بعض

---

(١) الفهرست ، ص ٥٧ — ٥٨

(٢) الشعر والشعراء ، ط ليدن ، ص ٧

الشيء فى حديثه عن الفصاحة ، والفرق بينها و بين البلاغة بالقياس إلى اللفظ والمعنى (١).

وأتى عبد القاهر ، فقال مرة : إن البلاغة ترجع إلى اللفظ ، وأورد قول الجاحظ . ومرة قال مايكاد يكون نفياً لهذا القول . وحاول القزوينى التوفيق بين قوليه ؛ كما قال ابن رشيق ، وابن سنان ، والسكاكى أقوالا فى هذا الباب ليس هنا مجال الحديث فيها (٢)

وليس الأمر مقصوراً على ما أثارته هذه المسائل من الجدل ، ولكن كتابة الجاحظ كانت مادة لكثير من المؤلفين فى البلاغة بعده . فباب العلم والبيان عند ابن قتيبة ليس إلا تلخيصاً منظماً لما فرقه الجاحظ فى كتبه (٣).

فكان فهمه للبلاغة واصطلاحاتها ، لا يخالف ما أتى عند الجاحظ (٤).

---

(١) الصناعتين ، ص ٤٢

(٢) شرح الايضاح ، ط المحمودية جـ ١ ص ٢٩ ؛ وسر الفصاحة ، ط الرحمانية ، ص ٥٥ ؛ ومفتاح العلوم ، ط الأدبية ، ص ٢٢٠ ؛ والعمدة ، ط مصر ، جـ ١ ص ٨٠ .

(٣) عيون الاخبار ، ط دار الكتب ، م ٢ ص ١١٧ - ٢٥٨ .

(٤) المعارف ، ط مصر ، ص ٣ و ٤ و ١٤٨ و ٢٠٠ و ٢١٧ و ٢٣٥ ،

وقدامة قد نقل كثيراً من الجاحظ ، كما تأثر به الرمانى ، على ما امتاز به من الإيجاز ، وكثرة الأقسام .

وليس أبو هلال إلا شارحاً للجاحظ فى كتابه الصناعتين ، جامعاً للمتفرق عنده . وقد تحدث عن كتاب البيان والتبيين ، بعد أن أورد طرفاً من تخليط بعض المتحدثين فى البلاغة ، فقال : (ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل . ووجدت الحاجة إليه ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة . وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين ، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . وهو لعمرى كثير الفوائد ، جم المنافع . . . . إلا أن الابانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة ، مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتثرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير . فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع مايحتاج إليه فى صنعة الكلام : نثره ونظمه ، ويستعمل فى محلوله ومعقوده ، من غير تقصير وإخلال وإسهاب وإهذار)[١] .

وهذا لون من ألوان التأثير الإيجابى للجاحظ ، نجده كذلك عند ابن رشيق ، وابن سنان ، وغيرهما .

والشعر والشعراء ، ط مصر ، ص ٧ و ١٢ و ٢٠ و ٢٦ و ٢٧ و ٣٤ و ٤٥ و ١٠٣ و ١٠٦

(١) الصناعتين ، ص ٦

أما التأثير السلبي : فقد رأيناه عند عبد القاهر الذى حمل على طريقة الجاحظ ، ولكنه لم ينج من سلطانه ، فنقل عنه كثيراً ، واضطرب فى حديثه عن اللفظ والمعنى بين مخالفة الجاحظ وموافقته .

***

وبعد : فأى طريق سلك الجاحظ فى الحديث عن البيان والبلاغة ، ومسائلهما ؟ هل سلك طريق المتكلمين ، أو طريق اللغويين ، والنحاة ، أو طريق نقاد الكلام ، أو طريق صناعه ؟

لقد تحدث ابن سنان عن هذه الطرق الثلاث ، فقال : (وذلك أن المتكلمين وإن صنفوا فى الأصوات وأحكامها ، وحقيقة الكلام ما هو ، فلم يبينوا مخارج الحروف ، وانقسام أصنافها ، وأحكام مجهورها ومهموسها وشديدها ورخوها . وأصحاب النحو وإن أحكموا بيان ذلك ، فلم يذكروا ما أوضحه المتكلمون الذى هو الأصل والأس . وأما أهل نقد الكلام ، فلم يتعرضوا لشىء من جميع ذلك ، وكان كلامهم كالفرع عليه)[١] .

ولا ريب : أن هذه الاتجاهات الثلاثة ، مع طريقة الأدباء أو صناع الكلام ، قد وجدت فى البلاغة .

فوجه المتكلمون عنايتهم إلى بيان حقيقة الكلام ، وذكر التعريفات وكيف تكون جامعة شاملة ، والاسراف فى التقسيمات ، وإدخال المنطق فى البلاغة . ولعل المقدم فى هذا الاتجاه ، هو قدامة فى نقديه ، فقد جعل

---

(١) سر الفصاحة ، ص ٥

المنطق من مقومات البيان .

أما اللغويون : فاتجهوا إلى تخريج الفنون البلاغية تخريجاً لغويا واتبعوا طريقة التنظيم فى التأليف ، متأثرين بما حدث فى علم النحو .

ولعل ما عند أبى عبيدة والمبرد يمثل اتجاههم. وكان النقاد يعنون بالمفاضلة بين ألوان البيان عند الشعراء ، وذكر المبتكر والمنقول منها ، والتنبيه إلى محاسنها ومساوئها ، أو تطبيق معايير المتكلمين واللغويين على الآثار الأدبية وهذا الاتجاه يظهر فى كتب النقد الأولى ، وقد وجدنا بذوره فى العصر الجاهلى .

والقريب : أن يكون الجاحظ المتكلم قد سلك طريق المتكلمين . والحق : أن أثر الكلام والجدل قد ظهر عنده فى حديثه عن الدلالات وأنواعها ، وفيما فرقه فى كتاب الحيوان ، من نحو حديثه فى اللفظ والمعنى ، والجدل فى ماهية الأكل فى التعبير المجازى : يأكلون فى بطونهم ناراً ، وأكلت النار زيت المصباح ، وما إلى ذلك . لكنه فى جملته رجل أديب ، اتبع طريقة أدبية ، تعنى بإيراد النماذج ، والاكثار من الأمثلة ، والآثار الأدبية شعرها ونثرها .

وقد عرف له هذا المتأخرون ، فقال أبو هلال بعد أن قرر أنه شارح للجاحظ ، منظم للمتفرق عنده ، و بعد أن تحدث فى الفصل الأول موجزاً عن ماهية الفصاحة

والبلاغة ، وهل ترجعان إلى معنى واحد ، أو تختلفان ، وفى وصف الله بالبلاغة: أجائز هوأم غيرجائز ، وفى وصف الانسان بها أحقيقة أم مجاز. يقول ، بعد الاشارة إلى هذه البحوث التى يعنى المتكلمون بها :

«وليس الغرض فى هذا الكتاب ، سلوك مذهب المتكلمين . و إنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب . فلهذا لم أطل فيه»[١].

وهذا صريح الدلالة فى أنه قد اتبع الجاحظ فى سلوك طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، وأن الجاحظ لم يسلك طريق المتكلمين

* * *

وكيفما كان الأمر ، فالجاحظ قد أورد الكثير من المسائل البلاغية إيراداً أدبياً . ولو وهب عقلا منظما ، يرتب المسائل ويصل بينها، لشكل الكثير من موضوعات البلاغة والبيان والمعانى تشكيلا نهائياً ، ولكان له شأن أعظم فى تاريخ البلاغة العربية .

(١) الصناعتين ، ج ١٦ ص ١١